

## المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 كانون الأول 2017

- جدلية التنظيم والجمهير في السياق العربي/ بشار شخاترة
- الوعي الجماهيري والتطرف: معركة مفتوحة وشاقة/ السيد شبل
- هل انتهى عصر الأحزاب السياسية حقاً؟/ إبراهيم علوش
- تاريخية السيرة (2) - الأناجيل كمصدر للسيرة/ محمد العملة
- منبر حر: ألف عام من تاريخ وطننا/ فارس سعادة
- الصفحة الثقافية: حال الغناء العربي/ طالب جميل
- المناعة التنظيمية/ عبدالناصر بدروشي
- قصيدة العدد: ولكن... طارق شخاترة
- كاريكاتور العدد

## جدلية التنظيم والجمهير في السياق العربي بشار شخاترة

يسترعي الانتباه مسار التنظيمات السياسية العربية الثورية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والتي تصدّت لمشروع الثورة العربية الشاملة، وحملت مشروعاً قومياً عربياً من أجل النهضة والتحرر والوحدة في سياق تاريخي بدأ بمناهضة الاستعمار مروراً بمرحلة الاستقلال والوصول إلى السلطة أحياناً والإخفاق أحياناً أخرى، بحسب واقع القطر ودرجة تطوّر التنظيم الثوري فيه.

ولعل أهم التجارب العربية في هذا المجال تجربة البعث والناصرية وحركة القوميين العرب، ومن المهم القول أن هذا المقال ليس لنقد تلك التجارب الغنية، ولكن يقصد منه الاستفادة من هذه التجارب بتسايط الضوء على نقاط تمس جوهر الثورة العربية الشاملة ومشروعها القومي الجذري، وهي محاولة لفهم سرّ هذا الاستعصاء في الواقع السياسي العربي.

كيف أخفقت الطليعة الثورية العربية في كسر القشرة التي تغلّف المجتمع العربي ولم تستطع أن تواجه تراثاً طويلاً من التخلف واستبطان الهزيمة والخوف الذي لاحق جماهير الأمة عبر قرون طويلة من الاستعمار، وكيف أنه بمجرد موت عبدالناصر على سبيل المثال أنقلب الدور القومي لمصر إلى النقيض على يدي السادات. ومن دون الحاجة لمن يذكرنا بغياب التنظيم الناصري الذي يحمي منجزات عبدالناصر، فإنه كان أولى بجماهير الفلاحين والعمال والطلبة، المستفيد الأول من منجزات الثورة، الدفاع عنها والتصدي للانقلاب الإمبريالي بغطاء إسلامي، وكان الأجدى بتلك الجماهير التي تحمّلت مع عبدالناصر عبء الحروب مع "إسرائيل" والإمبريالية والرجعية أن تدافع عن مكتسباتها على الأقل، ولكن الذي حدث كان مسلسلاً من الانهيار بدأ ولم ينته إلا بتسليم مفاتيح مصر للصهيونية.

الحالة الجماهيرية هذه تثير التأمل فعلاً، فهي من جهة مقدامةً وصبورةً وتحقق إنجازات وانتصارات في عهدها الذهبي الناصري، وهي من جهة أخرى منقابلة على ذاتها وتاريخها وإنجازاتها، وما يشبه هذا حدث في العراق بعد الاحتلال من ناحية انحلال عقدة التنظيم البعثي الذي مهما قيل عن نزوله تحت الأرض وحمله لواء مقاومة الاحتلال إلا أنه لا يعمينا عن حقيقة الانقلاب على العقيدة القومية وتبني خط إسلامي لا بل تكفيري في بعض مفاصله، وتفرق قاعدته

لمتابعنا انظر موقع لائحة القومي العربي:

[www.qawmi.com](http://www.qawmi.com)

وصفحة (لائحة القومي العربي) على فيسبوك  
روابط صديقة:

موقع الصوت العربي الحر

[www.freearabvoice.org](http://www.freearabvoice.org)

راسلنا على:

[arab.nationalist.moderator@gmail.com](mailto:arab.nationalist.moderator@gmail.com)



الجماهيرية طائفيًا وانقلابها على البناء الذي أسس له البعث في العراق، حتى لم تعدّ تسمع في العراق خطاباً عربياً بل أصبح الخطاب الطائفي هو سيد الموقف، وفي سورية انقلبت بعض الشرائح الاجتماعية - علي الإنجازات التي تحققت اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وقومياً - واستجابت للإغراءات المالية الخليجية وأجندتها الدينية التكفيرية الطائفية، إلا أنّ حفاظ الدولة على بُنيانها حافظَ على جزء من تلك الإنجازات، وبحق يصح القول أن جزءاً مهماً من الشرائح الاجتماعية، إن لم يكن الأكبر، وقَفَ خلف المكتسيات وخط الدولة السورية السياسي والعقائدي وأدركَ النتيجة المتوقعة من الانسياق وراء الخطاب التدميري القادم من خلف الحدود.

في هذا السياق يرى ياسين الحافظ أنّ مسلسل السقوط في التاريخ العربي بدأ مع سقوط المعتزلة (بمعنى سقوط العقل)، وأخذ يتوضّح مع ارتداء التاريخ العربي سحنةً مملوكية، وهذا أفرزَ حالة من الاغتراب بين الحاكم والمحكوم مع تقدّم العنصر الأجنبي إلى الحكم، فازداد الاضطهاد وتحوّل الحاكم إلى جلاّدٍ نهّابٍ والمحكوم إلى ضحيةٍ وادعة، وتحوّلت روابطها إلى ضرب من القطيعة وأصبح الخلاص فراراً من الدنيا ومن الحاكم، ومن هنا جاءت هيمنة الصوفية، واستكمالاً لانتصار مدرسة النقل على العقل وتحالفها مع العنصر الأجنبي

الذي تسلط على الحكم، وقد عبّرت هذه المدرسة عن أيديولوجيا انهيارية سوّغت الامتثالية كما يسمّيها ياسين الحافظ، صاغها على سبيل المثال (ابن جماعة) (نحن مع الفاتح)، والغزالي (طاعة الحاكم واجبة)، وقوننت الفرار (ابن تيمية) (أدوا إلى الحكام حقهم واسألوا الله حقكم)، وهكذا - يقول الحافظ - قولبت الثيوقراطية العسكرية الفرد في قالب عزوفٍ ووداعة ورضاً وانتظار.

إنّ ما حدث في التجربة الناصرية في مصر والبعثية في العراق، وفي سورية إلى حدّ ما، يغدو واضحاً بالقياس على تحليل ياسين الحافظ أعلاه، ولكن ما نودّ إضافته على ما أبداه ياسين الحافظ أن مرحلة صعود المعتزلة وتعميم المذهب وسيادة ثقافة العقل استمرت لبضعة عقود قبل أن يطيح بها المتوكل، ومع سقوطهم انتهى كلياً وبشكلٍ عنيفٍ منهجهم وسرعان ما عادت الأمور إلى ما قبل تلك المرحلة وعادت مدارس النقل التقليدية وفقهاؤها يحتلون مكانهم في مجالس العلم الشرعي، وتقبل الجمهور الرجوع لتغيب العقل بشكل أكثر سلاسة وكأنهم كانوا ينتظرون هذا الانقلاب كما يصفه الدكتور شاكر مصطفى في كتابه "دولة بني العباس"، حيث أنّ مشكلة كبرى ظهرت مع تسبّد العقلانيين المشهد تمثّلت بهجوم أصحاب المذاهب المناوئة المعتمدة على النقل والتشبّث بالحديث كمصدر للتشريع. وحالة المجتمع العربي إثر سقوط المعتزلة تشبه إلى حدّ كبير انهيار الناصرية في مصر بموت عبدالناصر وانهيار حكم البعث في العراق، والملاحظ في كل الحالات التي أشرنا إليها أن اختراق وعي الجماهير، أو لنقل بصورة أدق، أنّ تطويع وعي الجماهير، كان يحتاج دائماً إلى العنصر الديني ورجاله في تلبيد هذا الوعي وتخمين ثورته التي من الطبيعي أن تنفجر.

لقد أدركت السياسة العربية مبكراً الأثر الذي يمكن أن ينتجه الفقهاء، وأقصد هنا فقهاء السلاطين، فقد تمّ استخدامهم في العصور الذهبية للحكم العربي الإسلامي بطريق تفيقية تضي الشرعية على الحكم القائم، وهذا أحد أسباب سهولة الانقلاب على المعتزلة وغياب المنهج العقلي في الحياة العربية من حيثية أن عصر المعتزلة سبقه ما لا يقل عن مئة وعشرين عاماً من تفرد فقهاء النقل والتلفيق الذين هيئوا الأرضية لمصادرة العقل العربي فلم تقو سنوات المعتزلة في السلطة على تجاوز هذه المرحلة، ولم يكن هناك رادع من التقول على النبي (ص) وتقديم أحاديث تخدم السلطة

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

السياسية القائمة، وكان التقرب من السلطة مهماً في تعميم مذهب بعينه على حساب غيره، فمثلاً تحالف فقهاء المذهب الحنفي مع السلطة العباسية أدى إلى تعميم هذا المذهب في مناطق السطوة الفعلية للعباسيين في الشام والعراق ومصر، وبالمقابل، وفي موقف لا يخلو من الرمزية، تبنى الأدارسة المذهب المالكي في المغرب العربي، لكن يصح القول أن التحليل الذي قدمه الأستاذ ياسين الحافظ دقيق كون تجذر المشكلة أصبح أشد وطأة وأكبر أثراً بالتزامن مع الحاجة الماسة للصاعدين الجدد إلى السلطة الذين حملوا، مع افتقارهم للشرعية العربية والدينية، حقيقة أنهم صنائع الخلفاء الذين أتوا بهم، وتحديداً العنصر التركي الذي لم يتجاوز بدواته وافتقاره إلى الإرث الحضاري لتجد التعسف وتوظيف الفقهاء في خدمة سلطته.

إن التجربة التاريخية للأمة العربية غنية بالأحداث المفصلية التي أسست لكل الحاضر الماثل لا بل وهناك مراكمة طويلة من استلاب الوعي وهزيمة العقل أجبرت الناس على الابتعاد وسلوك الحياد، علماً أنها عندما تتلاقى توجهاتها وتطلعاتها مع السلطة السياسية كانت دائماً تظهر أفضل ما عندها، لكنها تتقهقر وتنقلب بمجرد انحلال السلطة أو انهيارها، فالسؤال كيف ستمارس الطليعة القومية نضالها في ظل إدراك حالة الوعي الجماهيري السائدة والمتأصلة. إن التنظيم القومي لا بد له، وقبل كل شيء، أن يتبنى عقيدة قومية جذرية، معيارها الأساس مصلحة الأمة وأن يضع ثوابت الأمة وأهدافها نصب عينيه مطبقاً معايير صارمة، وذلك كون الوعي الجماهيري يعاني من أمراض مزمنة ومستتبطة لا تحتل المجال، وهنا ينقسم عمل التنظيم الثوري إلى خطين متوازيين، الأول على مسار النُبئية التنظيمية باستقطاب العناصر المنسجمة مع أهداف التنظيم والمستعدة لخوض التجربة النضالية، لا بل لا بد من إخضاعها للتجربة واختبارها، وهذا المعيار يتحقق بحسن الاختيار والتحرر الكامل عن خلفية العضو المُستقطب وإخضاع عناصر التنظيم لتتقيف صارم والزامهم بقواعد عمل وسلوك لا تترك مجالاً لتسلل أمراض المجتمع إليه، إضافة إلى برنامج إعادة بناء وعي سليم منسجم مع خط التنظيم وخطته، لأنه من الطبيعي أن تتحلى الطليعة القومية بأقصى درجات الوعي والانضباط وضرب المثال في الممارسة الحياتية لعضو التنظيم، وكذلك لأن عناصر التنظيم وكوادره من المفترض أنهم طليعة نضالية مقاتلة وتزداد الحاجة للالتزامهم وتماسكهم وانضباطهم في أوقات تصاعد الصراع مع القوى المعادية للمشروع القومي.

أما الخط الثاني فهو مسار الجماهير وهنا يكون العمل بطرح خط التنظيم واستهداف الوعي المضاد الذي حملته الجماهير عبر قرون طويلة من استهداف العقل العربي، ولا شك في أن عملية بناء وعي جماهيري ليست بالسهولة المتخيلة، فمواجهة وعي جمعي مضاد لمصلحة الأمة لدى جماهير الأمة يحتاج أولاً إلى وجود العقيدة القومية التي تملأ عقل ومشاعر الجماهير التي تخضع في سلوكها لعقيدة دينية أبوية الطابع ومستسلمة لها عانت قروناً طويلة من التهميش والإبعاد، لذلك يتوجب على التنظيم القومي أن يعي هذا ويعمل على هدم جدار الوعي المضاد بالوعي القومي، ولا مناص من خوض هذه المعركة لتحسين الجماهير، فالثابت أنه ليس كافياً الوصول إلى السلطة السياسية في أي قطر، لأن المعركة الأهم والأعمق أثراً هي معركة الوعي، وهذا لا يقلل من أهمية استرداد السلطة من أيدي أعداء الأمة مما يساعد بالضرورة في خلق إنسان عربي جديد.

ولا يكفي ترديد الجماهير لمقولات قومية وإشاعتها بينها، فمن المهم أن تهضم الجماهير تلك المفاهيم، وما ترمي إليه الطليعة القومية ليس إسقاطاً فوقياً لعقيدة التنظيم على الجماهير، بل يجب أن يصبح خط التنظيم ومشروعه مطلباً للجماهير، وهذا ليس بالصعب نظرياً كون المشروع القومي الوجودي الجذري يعبر بالضرورة عن آمال الجماهير العربية ومصالحها الجوهرية ويقدم حلولاً قومية لتناقضات الواقع العربي ويلامس تلك التناقضات على المستوى الجمعي والفردي للجماهير، ويتمثل النضال الحقيقي بنقل العقيدة القومية إلى حقل الممارسة العقلية والنفسية للجماهير الأمة عبر برامج عمل جادة تتسم بالصدق والالتزام والتضحية والمبادرة.

ويكتمل مشروع بناء الوعي بتراكم العمل في حقل الوعي، وهذا ما يجب أن تظن له الطليعة الثورية، ولا تستعجل قطف الثمار، ولا تبقى أسيرة الوصول إلى الحكم وعمل تغييرات مادية فحسب، تبقى على أهميتها قشرية الطابع بالقياس للعمق الذي يخلقه اكتساب وعي قومي ثوري، ويسهل كسر هذه القشرة الهشة من قبل القوى المضادة، لأن المغريات التي يمكن أن يقدمها أعداء الأمة في سبيل إسقاط المشروع القومي أكبر مما يستطيع التنظيم القومي بلوغه في المرحلة الجينية من عمر العمل النضالي، لذلك تبقى الأولوية على كسب معركة الوعي واستقطاب الجماهير إلى الخانة القومية أولوية.



العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

لذلك فإنّ عملية مراكمة الوعي مهمة جداً، لأنه ببساطة وعيٌ جديدٌ يعمل على كنس وعيٍ مخترق يبلغ من العمر قرناً، وينبغي بناء أجيال متعاقبة تصبح معها حالة الانهزام والاستسلام لدى الجماهير قصةً من الماضي، لذلك فإنّ مثل هذا النضال من المهم أن تعي طليعة العمل القومي أنه طويل النفس ولا يمكن إنجازها في فترة قصيرة، إنه مشروع نهضة حقيقي يواكب عناصر النضال القومي ويحتاج إلى المراجعة الدائمة والتطوير.

فالرأسمالية، على سبيل المثال، استفادت من تجاربها ولا تزال تعمل على تكريس مفاهيمها وتطوّر من وسائل هيمنتها على جماهيرها في بلادها. نعم، لقد استطاعت تقليص أظافر الجماهير لديها وتوطين وعي في عقولها لا يرى ولا يفكر ولا يسمع ولا يشعر إلا من خلال المفهوم الرأسمالي للكون، وتمارس الرأسمالية لتحقيق ديمومتها وتوسّعها على حساب أمم الدنيا كل ما يخطر ببال من استعمار وغزو ودمارٍ وحصارٍ واغتيال لا سيما خارج العالم الغربي، ومواطنوها لا يشعرون بأي ذنبٍ أو خجل، لأنها استطاعت تسليع الوعي الجمعي ورسمته، وبالتأكيد ليس هذا ما يصبو إليه التنظيم القومي الطبيعي من حيث بنية الوعي، ولكنه يسعى لأن يجعل الوعي الجماهيري العربي قومياً عربياً وحدوياً تحررياً اشتراكياً لا يرى ولا يفكر ولا يشعر إلا من خلال المفهوم القومي للكون، عندها يمكن القول أننا بدأنا معركة تأييد الوعي الحقيقي للجماهير العربية.

إن التنظيم الذي يطمح إلى هذه الدرجة من العمل والبناء يجب أن يتحلّى بالروح النضالية العالية والبنية الحديدية والانضباط وتطبيق معايير قاسية على كوادره وعناصره وفي تعاطيه مع المحيط وخصوصاً التنظيمات التي تدعي أنها قومية، حتى لو بدا جموداً في بعض جوانبه إلا أنه بالقياس لدقة معركة التنظيم لا يمكن التساهل بأبسط التفاصيل، كون التهاون في المحاسبة أو المجاملة آفة ستأتي على التنظيم وعلى المشروع مع اتساع ميدان النضال وتوسّع القاعدة التنظيمية والجماهيرية للتنظيم، عندها سيصبح أي خلل انتكاسة لدى الجماهير التي بدأت تثق بالتنظيم وكوادره وخطه، وتصبح المهمة الطليعية للتنظيم مهمة مضادة ستدمر الثقة بالمشروع وتتحول إلى معول هدم تستغله القوى المضادة.

إن العلاقة الجدلية بين التنظيم والجماهير تتسم بقدر عالٍ من الانسجام والتناقض، فمن جهة فإن التنظيم بالحد الأعلى الذي يجب أن يتسم فيه بوعي متناقض تماماً مع وعي الجماهير وثقافتها المضادة لمصلحة الأمة، وبالقدر العالي أيضاً الذي ينبذ فيه أمراض المجتمع ويحاربها بين صفوفه، وبالقدر الذي يتمسك فيه بالنظام مقابل الفوضى التي تسود الجماهير، فإنه ينسجم مع تطلعات هذه الجماهير ويتعاطى معها بأقصى درجات المحبة والإيمان بها ويتحمل منها كل شيء ويصبر عليها ويؤمن أنها قابلة للتغيير والتحول إلى الحالة الأفضل من تبني المشروع والتضحية من أجله والسير فيه إلى مبتغاه، ولأنه يدرك أن الجماهير هي وعاء العمل النضالي بها ولها قلا مجالاً للتعالي عليها أو الانفصال عن طموحاتها أو عدم تفهم حالة المرض المزمن الذي تعانيه، هذه العلاقة حتى بعد إنجاز مهمة بناء الوعي وإنجاز بنود المشروع بالوحدة والتحرير والنهضة يجب أن تبقى جدلية الطابع، ولكن من باب أن التطور دائماً والحركة يخلقان جدلاً من نوع آخر في العلاقة بين التنظيم والجماهير، وهذا يحافظ على آلية التطور والتحصين، لا أن يتحول التنظيم إلى الشعب والشعب هو التنظيم فتلك سقطة لم تدرکہا التجربة القومية وقد مرّت بها تنظيمات عالمية لا سيما في العالم الشيوعي، في النسخة الماوية منها تحديداً (مع أن لينين حدد بوضوح أن وعي الجماهير الثوري لا يأتي إلا عبر الطليعة الثورية)، لأن إلغاء هذا الجدل سيخلق حالة من التوحّد بين التنظيم والجماهير والدولة يقود إلى الجمود، وسيعيد الكرة مرة أخرى، فأعطاء الجماهير المجال الحرّ للحوار والاختيار في إطار المعركة المستمرة على مستوى الوعي، يحصّن الحالة ويحميها ويعمّق الإيمان فيها.

## الوعي الجماهيري والتطرّف التكفيري: معركة مفتوحة وشاقّة

السيد شبّل



رغم قوة وخطورة المعركة التي عشناها -ولا نزال- في مواجهة الجماعات المتطرفة السلفية الإقصائية في السنوات الأخيرة، فنحن على الصعيد المجتمعي العام ما زلنا مقصّرين في إعطائها حجمها الذي تستحقه كـ"عدو"، ولم يع الشارح، بالضبط -وهذا قصور إعلامي ومنهجي- الجهات التي تؤمّلها أيديولوجياً ومالياً وتستثمر فيها، وعدم رؤية هذه الجماعات ضمن هذه الصورة يصعب من مهمة مواجهتها (يجب تثبيت أنّ المواجهة أمنية بالأساس، لكن هناك مكملات تدعم المواجهة، وتفتت الحاضنة. والمؤكد أن علاج أي قصور - ثقافي أو اقتصادي أو سياسي- يفيد ولا يضر)، وعدم اكتمال المواجهة يُبقي هذه الجماعات حيّة تمثل رأس حربة مشروع استهداف خارجي، يهدف للاستنزاف والتخريب والتقسيم وتأييد التخلف.

هذه الجماعات، بالأصل، صناعة سياسية وهي مُختَرقة أيديولوجياً وبنوياً منذ لحظة نشوئها وحتى الساعة.. لكن هذا لا يعني، أيضاً، أنهم هايطون علينا من كوكب آخر، أو أنهم من أقوام مختلفة، أو أنهم يتحرّكون بـ"الريموت" من دون بُنية أيديولوجية، وعقائدية و"إيمان".

الدور الأمريكي، مثلاً، في أفغانستان بالثمانينيات الذي أطّر وموّل ونظم "السلفيين الجهاديين" العرب.. مركزي في مسيرة العمل "الجهادي". على سبيل المثال، لا الحصر، لو تفحصت أغلب قيادات العمل المسلح الذي يتحرّك أسفل

"رايات دينية" في ليبيا بينغازي ودرنة، والعديد من مناطق الغرب، والذي يتلقى دعماً قطرياً وتركياً، ويعوم على سطح المشهد بالتحالف مع/بفضل طائرات وقوات حلف شمال الأطلسي "الناتو"، وكان بوابة لاستقبال وتصدير المقاتلين والسلاح لسورية ومصر وتونس والجزائر.. نقول لو تفحصت قادة هذه العمليات لوجدت أن أغلبهم من "الجماعة الليبية المقاتلة"، وهي تشكيل عصابي "عقدي" انتشر في ليبيا بالتسعينيات، ونفذ عمليات إرهابية، وقوامه هم العائدون من أفغانستان، ويمكن البحث خلف أسماء قادة هذه التنظيمات، من أمثال: سالم الدربي، وعبد الحكيم الحصادي، وعبد الحكيم بلحاج، وإسماعيل الصلابي (قائد ميليشيا راف الله السحاتي وشقيق القيادي الإخواني علي الصلابي).. للنتيجة من الدور الذي لعبته المرحلة الأفغانية في تكوين هؤلاء. وكما ليبيا، تجد الوضع المصري، فأرهاب التسعينيات، لم يكن إلا امتداداً لمجموعات العمل السلفية، التي انتقلت من أفغانستان إلى السودان باستضافة من حسن الترابي وعمر البشير، وهناك عاش أيمن الظواهري وسيد إمام (المنظر الشهير، وصاحب الأعمال التي لا تزال تشكّل عقول "الجهاديين" إلى اليوم\*)، ومن هناك انطلق قطار العمليات الإرهابية، وجرّت محاولات اغتيال لوزراء وتمّ قتل رئيس مجلس الشعب (رفعت المحجوب في أكتوبر 1990)، إلى جانب عدد من العمليات الإرهابية الأخرى، كان أبرزها قتل عدد من السياح الأجانب والعاملين المصريين في 1997 فيما سمي بـ"مذبحة الأقصر" وتبعتهما تحية لوزير الداخلية وقتها حسن الأفقي.

أفغانستان، كانت عاملاً مركزياً في سيناريو تطوّر السلفية الجهادية، وارتدادها للوطن العربي وانتشارها عالمياً (لعبت فيما بعد دوراً بأفريقيا السمراء، والشيشان، ويوغوسلافيا.. وفي بورما وغرب الصين والفلبين -أبو سياف عبد الرزاق الجنجلاني القائد الأبرز للعمل المسلح في جنوبي الفلبين، والذي قتل في اشتباك مع الشرطة في 98، تقول سيرته أنه انتقل من السعودية هو وفريق من أعيانه لأفغانستان وتدرّب هناك ثم عاد إلى الفلبين ليقود العمل "الجهادي"-)،

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

وحين ندرك ذلك، نفهم في رقبة من، ومن دون الغوص كثيراً في التاريخ البعيد -ولو أنه ضروري التفتيش عن جذور "الإسلام السياسي" والدور البريطاني في تكوينه- يمكن أن نعلق تهمة السلفية الجهادية، والرقبة هي: واشنطن، والرياض، ونظام أنور السادات. هذا التحالف هو الذي قاد عملية تفسير الشباب تحت لافتة "الجهاد الأفغاني" ولتحقيق مصالح أمريكية في العداء مع السوفييت (والدور الأمريكي التخريبي في أفغانستان أقدم من زمن جيمي كارتر وزينغيو برجنيسكي، وأقدم بعقود من دخول القوات الروسية في 1979، بل هو يعود للخمسينيات والستينيات، وكان صدئاً دائماً للحلف بين واشنطن وإسلام أباد، والأخيرة لم تفوت حلفاً "إسلامياً" تأسس برعاية أو في ضوء أفكار جون فوستر دالاس إلا وانضمت إليه!).

أما البنية الأيديولوجية لهذه التنظيمات الجهادية، فاعتمدت على المزج بين القطبية الحركية الإخوانية، والتزمت الديني الوهابي، وهذه "الخلطة" تخمّرت في العديد من الأقطار العربية، منها القاهرة في السبعينيات، حين انتشرت الوهابية، وأعيد الروح لجمعيات مثل: أنصار السنة المحمدية والجمعية الشرعية، (وأنصار السنة، هي جماعة مبنية على الوهابية منذ لحظة ميلادها، وركزت نيرانها على أمرين: الصوفية والحداثة. وحظيت بدعم وتمويلات سعودية مفرطة وجرى احتضان من المملكة لزعمائها إلى حد أن عدداً من مشاهيرهم كعبد الرزاق عفيفي وعبدالرحمن الوكيل ماتا ودفنا هناك، وهي امتداد نسبي لأفكار رشيد رضا، وتمثل، بدرجة ما، الشقيق الراديكالي للإخوانج.. رغم أن الشقيقين كثيراً ما تطاحنا. لكن، مثلاً، مجلس شورى العلماء الذي تأسس بـ 2011، وقاده عبد الله شاكور رئيس أنصار السنة المحمدية كان مالياً تماماً للإخوانج، ودعا لانتخاب مرسي بالجولة الثانية، واعتبر، بحسب الأهرام 14 ديسمبر 2012، أن عدم التصويت على "دستورهم" بـ "نعم" هو خروج لا شرعي على الحاكم!)، والمتخرّج من هذه الجمعيات، أو من هذه العبادة الفكرية، ليس بالضرورة أن يصير "جهادياً" حاملاً للسلاح، لكنها شكّلت الحاضنة للترتّب ورفعت معدل التعصب الديني والكرهية، وصار أتباعها محصورين ومقولين، ومتميزين -حتى على مستوى المظهر- ومحقوقين بالترجسية، وشاعرين بالامتياز والفوقية، ثم قدّمت سرديات عقديّة يشعر الفرد بناءً عليها باحتقار الآخرين وانحرافهم (جميع المذاهب والأديان -بحكم وجودها- ستري الآخر منحرفاً وضالاً وكافراً)، لكن ليست كلها تبادر للتكفير أو قولبة تابعها، أو لسناء، نحن كعرب، نعاني، من شيء الآن، بقدر: الوهابية.. التي إن بقيت مجردة فهي حاضنة للتطرف وتأييداً للتخلف ورجعية تماماً تتناقض الحكام، وهي مصنع لإنتاج الزوجة والصور اللاحضارية، وإن تمّ خلطها بـ "الإسلام السياسي الحركي: الإخواني" .. تنتج "سلفية جهادية" تقتل وتستنبح الدماء، وتلعب دور الجيش الذي ينفذ للأعداء الإمبرياليين طموحاتهم، بغير أن يبذلوا من دم جنودهم ولو قطرة. (السلفية الجهادية، عملياً، صارت جيشاً غريباً، على مستوى الأهداف، لكنه بلحي وثياب قصيرة، و"عقيدة" تطمّعهم في الموت!).

**تحليل الدور الغربي، والبناء الأيديولوجي، إلى جانب أمور عديدة أخرى قد تتطلب مجلّدات، هي أمور أساسية، حتى نفهم كيف نحارب؟ ومن نحارب؟ وما الذي نحاربه؟**

الصحيح والذي يجب عنوانته دوماً أنه في النهاية (السياف أصدق إنباءً من الكتب، كما قال أبو تمام)، وأننا بصدد معركة حربية بين عدوين -هكذا بكل بساطة- يجب حسمها في الميادين وحماية الجماعة الوطنية من هؤلاء الظلاميين المخربين بالقوة المسلحة (هذا، بالمناسبة، وفيما يخص الشأن المصري يتطلّب التحرر الكامل من قيود كارثة "كامب ديفيد" والإسكاف بكامل سيناء وبتسليح كامل وبحسب ما تقتضيه المعركة، حتى تُتم القوة المسلحة مهمتها ثم تليها قوة التنمية الاقتصادية العادلة والثقافة)، ويدخل ضمن اللافتة الأمنية الجهد المخبراتي وإنفاذ القانون على أي خلية تتشكّل ورقابة الأموال التي تدخل الأقطار العربية وتتحول لدعم للمتطرفين وأفكارهم وأساليبهم وعائلاتهم.

لكن، ما هو صحيح، يتطلّب مكملات عدّة. مكملات تتعلق بالوعي العام المفروض نشره؛ لا يمكن، مثلاً، تصوّر أن يصمت الرأي العام العربي إزاء ادعاء الرياض قيادة حلف لمحاربة الإرهاب!!.. هذا المفترض أن يكون ضمن الكوابيس، لا ضمن الواقع. الخراب الذي تسببت فيه السعودية حاضرٌ يخزق العيون في سورية، والحركات الأصولية المتطرّفة التي تقاوم هناك، وترفع الرايات السوداء، وتنتشر الدمار والجهل والخراب، وتحكم بموت بمن يخالها على أساس معتقدات موروثة، تتلقى دعماً مباشراً من السعودية، هذا بخلاف دورها القريب في تحريض عمرو موسى حين كان أميناً عاماً لجامعة الدول العربية لاستدعاء الناتو لقصف ليبيا، وهو ما انتهى لتحطيم البلاد وتعويم الجماعات "السلفية الجهادية" على سطحها، ودورها المركزي في تجربة أفغانستان، وما تلى ذلك، وما سبقه من احتضانها، مثلاً، للعناصر الإخوانية في الخمسينيات والستينيات، حين كان النظام المصري بعهد الزعيم جمال عبد الناصر



العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

يحاصرهم، ويحاكمهم بتهم تتعلق بتورّطهم في أعمال عنف.. والسبب في تجرّنا للدور السلبي الذي قامت به الرياض في تعطيل وإرباك وشنّ حرب مباشرة ضد حركة التحرر الوطني والثوري الصاعدة، تأمرت على الوحدة، وحاربت مصر في اليمن -مباشرة- ثم في سيناء -من وراء-، وناكفت الثورة اليمنية بـ 1962 ذاتها، ثم فيما بعد وقفت بالمرصاد للتجربة الاشتراكية اللافتة التي ظهرت في جنوب اليمن بعد الاستقلال عن بريطانيا في السبعينيات والثمانينيات (منسية تلك التجربة، مع الأسف!)، كما خطّطت لاغتيال إبراهيم الحمدي، في الشمال، متحالفة مع القبائل التي رفضت مشاريع الحمدي لتأسيس دولة مركزية وحدائية، ووضعت يدها بيد عميلها الشيخ عبد الله الأحمر الذي سيؤسس حزب "الإصلاح الإخواني" فيما بعد، وقطعت الطريق على تحالف كان في الطريق بين الحمدي الرئيس الشمالي، وسالم ربيع علي رئيس الجمهورية الديمقراطية الشعبية في الجنوب.. وأكثر من ذلك بكثير فعلته السعودية، بلديا وسورية والعراق والجزائر، ودورها في تحطيم هذه التجارب الرائدة، والتي كانت كفيلة بنقل العرب للعصر، فعلاً، وجعلهم أحراراً من حكم الماضي -أي ما كان-، هو الذي تدفع ضريته اليوم، وإطفاء المصباح هو كفيل بأن "تنشق الأرض عن عفاريته" كما يقال، غير أن "الغفاريات" هنا، ليست في دنيا الخيال، بل في الواقع تأكل وتشرب وتتنفس وتحمل السلاح وتوغل في القتل.

ما نحتاج فهمه أن المعركة صعبة وقاسية.. وأن الانتصار العسكري عندما يتحقق فإنه يمهد لمعركة أوسع، وهذه المعركة تحتاج إدراك الأعداء الخارجيين في البيت الأبيض و"تل أبيب"، أصحاب المصلحة الأصلية في كل ما يجري (العدو الصهيوني شريك في كل ما يجري بسيناء المصرية، ولا جدال أنه مُخرق التنظيمات التي تتحرك هناك، وهو مسرور أن الخطاب صار يتجاهل مركزية كعدو، والمطبّعون النظاميون والذين يتقاضون رواتبهم من رجال الأعمال ومنظمات دولية يبذلون مجهوداً خبيراً للتهوين من جرائم العدو في الماضي.. رغم أن الإرهاب الحالي في الحاضر هو من جرائمه أيضاً، أقل شيء بسبب "كامب ديفيد"، ودور الطيران الصهيوني في سورية الداعم للمسلحين هناك وهم أنفسهم الموجودون في سيناء، وعرقله المشروع المصري الصاعد في يونيو 67. والثابت المركزي أن عباءة الإمبريالية الغربية التي تحتوي الصهيونية هي ذاتها التي تحتضن تلك النسخة الوهابية القطبية المسلحة، ثم بعد تثبيت عدائنا للطرف الصهيوني، يتمّ شنّ حربٍ بالسلاح وبالعقل على جنودهم في الداخل.

## الماضي لا يلد الحاضر بالضرورة.. ونحتاج للمصنع والمسرح والحلقات الثقافية

لنستفد، على الأقل، من "صدمة الأعمال الإرهابية" في إعادة علاج مواطن الخلل الداخلي، وتجفيف البركة، لنعيد النقاش حول مدارسنا، والتقسيم الطائفي الحاصل فيها، ولنطرح أسئلة حول أشياء مثل: الحداثة والعقلانية.. لماذا هي معطّلة، وكيف نمنع الخارج من محاولاته المستمرة لتعطيلها؟، وكيف نعبّر إلى زماننا (الحداثة، والتنوير، والعقلانية.. هي أشياء مثل "النووي" الذي يجب أن نتسلّح به ضد أعدائنا الذين يملكونه أيضاً، حتى تتمكن من الانتصار والمقاومة.. وهي، بكل الأحوال، ثوابت للمشروع النهضوي عامة وباب لتعزيز الحياة). مطلوب إعادة التصالح مع تراثنا على أسس حضارية ومعقولة، كيف ننقد، مثلاً، بدون أن نسقط في فخ الانسلاخ؟ وكيف ننتهي بدون أن نهبط إلى وحل التوثين والتقديس المجمل للماضي؟ علينا، مثلاً، أن ندرك أن أوجه التراث المظلمة والفاشية، موجودة عند الجميع، والماضي لا يلد الحاضر بالضرورة، إلا لو كان مُقدّساً عند أصحابه، حينها يتحوّل السيء منه -أو الذي لا يفهم ضمن عاملي الزمن والسياق المُجمل- لحطب، لكنه أيضاً لا يشتعل إلا بفعل فاعل، وظرف موضوعي وذاتي (هنا تدخل السياسية ومصحة قوى النهب العالمية ونظم الخليج).

لو كان الماضي يلد الحاضر أوتوماتيكياً لكان عموم الكاثوليكبة، اليوم، صليبيين يقتلون المسلمين واليهود والمسيحيين الكاثار أو أعضاء في محاكم التفتيش أو يواصلون حرب الثلاثين عاماً.. ولكان الإيطاليون يرمون بالعبيد ليصار عوا الوحوش بالساحات.. ولكان رأي البابا بيوس التاسع الراض للعلمانية هو السائد رغم أنف الجميع! لكن هذا أيضاً لا يجب أن يحول دون أن نخوض المعركة بأريحية مع التراث، والتراث العربي غني جداً بالأمثلة التي يمكن أن تنثري الحاضر وتغنيه، بعيداً عن الأمثلة الظلامية، التي لا تصدر العنف في الأقوال والفتاوى فحسب، وإنما في روح مشروعها نفسه. لدينا الحلّج بثوريتته وفلسفته وروحانيته، ولدينا أبو العلاء المعري وابن المقفع والكندي وأبو بكر الرازي وابن رشد وابن سينا وبنشار بن برد وإخوان الصفا وابن سبطين وأبو حيان التوحيدي والحارث بن سريج وعامر العنبري وابن عربي وعمر بن الفارض وابن الخشاب ويزيد الثالث بن الوليد الأموي وعمر بن عبد العزيز (الذي قتله أمويون آخرون بعد عامين من حكمه) والبلغاء الخزمية وأبو ذر الغفاري والحسين.. هذه كلها أمثلة من التراث تصلح لتعبئة الحاضر بالقيمة والمثال الجيد ويمكن أن تؤسس عليها مستقبلاً سليماً، شرط عدم السقوط في فخ المثالية والالتزام بالنظرة التاريخية..

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

ماذا لو عادت قراءة التراث، مرة ثانية، كما كانت في مؤلفات وأشعار هادي العلوي وحسين مروة ومعين بسيسو وصلاح عبدالصبور ومظفر النواب؟، وضمن هذه الشروط النخبوية التي لا تتعامل معه بشعورية كاذبة، بل تقراه على أسس عقلانية وعميقة، ثم تعود لتُكبّله (من الكبسولة) للجمهور في مسرحية أو عمل درامي أو كتاب أو قصيدة شعرية، يعني ضمن ضوابط العصر والحدثة.

نحتاج لأن نبني مصانع، ونعيد الاعتبار للقطاع العام من جديد، ولمشاريع التنمية المستقلة، ونحارب التمايز الطبقي الذي يتصاعد، فيدمر المعنى الجمعي للوطن والقدرة على المواجهة، ولأن نؤسس مسارح وسينمات وإذاعات، ولندرب الناس على حب الحياة، وأن نسد الفراغ لدى الشباب بنوادي رياضية ومنشآت ثقافية وساحات للنقاش والتنظيم السياسي المقاوم والجمعي.

## وحدة المعركة وحتمية التحالف

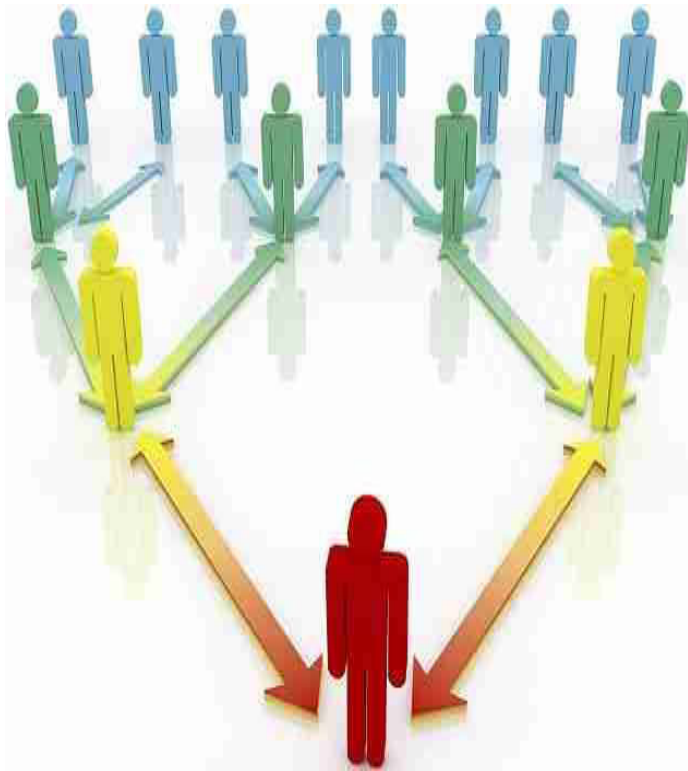
ما حصل في السنوات الأخيرة أعاد مفهوم وحدة القضية العربية والعالمية التي تعاني من الغرور الأمريكي، وعرف الشارع لكن النخبة لا تزال تنكر!- أن المعركة في مصر وسورية هي ذاتها في لبنان ليبيا والعراق والجزائر، وأنه لا يمكن لفطر بمفرده النجاة، وأن الانعزال والنأي بالنفس، لا يعني سوى شيء واحد، وهو أنك تخلي الساحة لأعدائك وستدفع ضريبة ذلك بالداخل، وأن الحل الوحيد في أن تنجو من مخاطر تأتي من أشخاص بالأسنة وأنساب عربية هو أن تكون عربياً أكثر وصاحب دور قومي أوسع، وأن السبيل الوحيد للنجاة في هذا العالم، هو أن يكون لك دور أممي تضامني وجبهوي ملحوظ وحقيقي (لا بديل). وأن المعركة في سورية، مثلاً، لم تُحسم إلا بتضافر (سوري - عراقي - لبناني) إلى جانب تحالف عالمي وإقليمي (روسيا - إيران - الصين)، وأن كل رصاصة تستقر في صدر إرهابي في العراق وسورية، تحمي شمال سيناء منه مستقبلاً، وأن كل صاروخ تقصفه طائرة مصرية على "مجالس شوري المجاهدين" و"أبناء القاعدة" و"الدواعش" في ليبيا، يحمي الجزائر وتونس.. وإلخ، بالضرورة. روسيا، مثلاً، التي عرفت مخاطر التطرف سابقاً في القوقاز، وبقاؤها اليوم متحالفاً مع النازيين الجدد في أوكرانيا، فهمت أنه لو انتصر في سورية فهو أتيها لا محالة، فخرجت لمقاومته حيث هو، إلى جانب حماية المصالح وتعزيز الحضور، وكذلك الصين التي تتعرض لمشروع تكفير في انفصالي في منطقة "جينجيانغ"، والتي أدركت أن انهيار سورية يعني مباشرة تكثيف للهيمنة الأمريكية، فواجهته بـ"الفتوة"، لأن مصلحتها كقطب نام أن تحفظ التوازن العالمي، وطهران شعرت بالخطر الوجودي.. وهكذا. وهذا يثبت حقيقة أن (التحالف) أمرٌ مركزي لكي تستطيع الانتصار على العدو "السلفي الجهادي" ومموليه والمستثمرين فيه "النظم الخليجية والصهيوني والأمريكي"، وأن التخلي عن مثل هذا التحالف يعني أنك تصيب نفسك عامداً بالشلل، وتفقد دعم أولئك الذين يخوضون معركتك ذاتها ضد العدو نفسه.. لكن الأغرب والكارثي، هو أن تتصور إمكانية النجاة من الخطر الإرهابي بالتحالف مع أو بالتبعية لمموليه -مالياً وأيديولوجياً- والمستثمرين فيه أنفسهم!

\* سيد إمام، هو من أشهر منظري القاعدة، وبرز عمله أثناء المرحلة الأفغانية، واعتبره أيمن الظواهري منظر تنظيم الجهاد القادر على منافسة عمر عبد الرحمن منظر الجماعة الإسلامية، وقد عاش في السودان لفترة (وهناك صدرت له كتب مثل: "الجماع في طلب العلم الشريف" الذي روجت له صحيفة "المجاهدون" التي كانت تصدر من لندن! -دور بريطاني تأمري صريح عبر احتضان العناصر "المتطرفة الجهادية"، من أمثال أبي بصير الطرطوسي وأبي قتادة الفلسطيني وأبي مصعب السوري وهاني السباعي وعادل عبدالمجيد، وغير دعم مؤسساتهم-) ثم وقع خلاف بين إمام وبين الظواهري، انتقل على إثره لليمن، ومن هناك، وبعد فترة قبض عليه، ثم تمّ ترحيله لمصر، وفي السجن أصدر شبه مراجعة تحت عنوان "ترشيد العمل الجهادي" صنعت أزمة بينه وبين الظواهري.. وقد خرج من السجن بعد 2011، وقد تبنى تكفير "محمد مرسي" صراحة في لقاء على فضائية "العربية" السعودية، وهو ضيف في السنوات الأخيرة على عدد من الفضائيات الخاصة، والمؤكد من لقاءاته أن مراجعاته لم تبدل من أفكاره، سوى على المستوى العملي.



## هل انتهى عصر الأحزاب السياسية حقاً؟

إبراهيم علوش



يمكن أن نلاحظ، في كل البلدان الغربية تقريباً، أن الأحزاب السياسية التقليدية الكبيرة تذوي، وأن قواعدها الجماهيرية تنقلص، وأن قدرتها كأحزاب على تحقيق نصر حاسم، في أي انتخابات نيابية مثلاً، صارت دوماً موضع شك، وأن منافسة الأحزاب التقليدية الكبيرة لبعضها البعض لم تعد بالضرورة الشكل الأساسي للصراع في الحيز الحزبي الرسمي والمرخص، إنما مزاحمة تلك الأحزاب التقليدية الكبيرة من قبل قوى وشخصيات وشبكات غير تقليدية، قدمت من خارج المؤسسات السياسية التقليدية أو من على هامشها، لتحتل مساحات كبيرة من الحيز السياسي والجماهيري على حساب الأحزاب التقليدية الكبيرة. ولو نظرنا في الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأمريكية في العام 2016 مثلاً، لوجدنا ظاهرتين جديدتين وخارجيتين عن مألوف النظام السياسي الأمريكي، إحداهما ظاهرة بيرني ساندرز على يسار الحزب الديمقراطي، والأخرى ظاهرة دونالد ترامب المحمول على أجنحة اليمين الشعبي، ولوجدنا أن تينك الظاهرتين مثلتا تحدياً ملموساً لمؤسستي الحزب الديمقراطي (في حالة ساندرز) والجمهوري (في حالة ترامب) وأنها كادت تظفر بتمثيل الحزب في الحالة الديمقراطية، وأنها ظفرت بتمثيله في الحالة الجمهورية لتفرض نفسها، في المحصلة، على قمة هرم النظام السياسي في الولايات المتحدة على الرغم من إرادة قيادة الحزب الجمهوري وتوجهاتها مما خلق احتكاكات وتناقضات ما بين ترامب و"الدولة العميقة" (بشقيها الجمهوري والديموقراطي) ما برحت تنعكس على كل ملفات السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية.

وما حدث في النظام السياسي الأمريكي لحظنا مثله وأكثر في عدة بلدان أوروبية، من بريطانيا (بوريس جونسون ونايجل فراج، وجيريمي كوربن على يسار حزب العمال) لفرنسا (مارين لوبن وصعود الجبهة الوطنية) لإسبانيا (حركة "بوديموس") لليونان (حركة "سيريزا")، وفي عدة دول في العالم تتبنى نظام الانتخابات النيابية أو الرئاسية دفع عدداً كبيراً من الكتاب والباحثين في الغرب للتساؤل: هل انتهى عصر الأحزاب السياسية؟ وكما كتب غاري هارت، المرشح الرئاسي الأمريكي الأسبق: "الأحزاب السياسية الأمريكية، كما عرفناها على مدى قرنين، باتت تتحلل. ويتم استبدالها حالياً باتتلافات متبدلة باتت تتشكل ويعاد تشكيلها باستمرار" (3) Huffington Post، حزيران 2005). والحقيقة أن الشبكة العنكبوتية حافلة بعشرات، وربما مئات، المقالات والدراسات باللغات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية وغيرها التي تنطرق لمسألة "نهاية الأحزاب السياسية" أو تنتبأ بنهايتها الوشيكة أو البعيدة. إحدى تلك المقالات (بالإنكليزية) مثلاً حملت عنوان: "هل ستجعل الشبكة العنكبوتية من الديمقراطيين والجمهوريين ظاهرة بائدة؟" (مجلة فيلادلفيا، 26 نيسان 2012). أما الأومانييه الفرنسية فقد نشرت ثلاث مواد في 12 كانون الثاني 2017 تحت عنوان واحد هو: "هل تستمر الديمقراطية من دون الأحزاب السياسية؟". صحيفة "ديلي مافريك" الجنوب إفريقية ذهبت أبعد من ذلك تحت عنوان "الأحزاب السياسية: هل أصبحت ظاهرة بائدة؟" إلى التعامل مع كل ظاهرة الإرهاب التكفيري باعتبارها "ممارسة السياسة خارج الأطر الحدائنية للممارسة السياسية!" (4) Daily Maverick، تموز 2016).

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

إلى هنا، يدور الحديث عن الأحزاب التقليدية والمؤسسة السياسية التقليدية، التي فقدت الكثير من مصداقيتها لدى الناس فتوجّهوا إلى أطر خارجها يرون أنها أكثر تعبيراً عنهم وعن مصالحهم وتوجهاتهم على اليمين وعلى اليسار، ولكن ذلك لا يعني التخلي عن التنظيم السياسي من حيث المبدأ، وفي النهاية، فإن بعض الأطر البديلة التي لجأ إليها الناس هي تنظيمات سياسية. وقد سبق أن تناولت هجرة الناس من الأحزاب التقليدية في الغرب إلى أطر بديلة في مادة بعنوان "العولمة وصعود نجم اليمين الشعبوي في الغرب" (نداء الوطن، 4 كانون أول 2016) كان مما جاء فيها: "يرى تحليلٌ نشر في مجلة "فورن أفيرز" الأمريكية في 3/6/2016 أن الأحزاب اليسارية (الاشتراكية) في الغرب انتقلت في التسعينيات وما بعدها للتخلي عن الأيديولوجيا، ولتبني سياسات يمينية فيما يتعلق بالاقتصاد، توني بلير من حزب العمال البريطاني نموذجاً، وأن الأحزاب اليمينية التقليدية في الغرب انتقلت لتبني مواقف أقرب لمواقف اليسار الليبرالي في القضايا الثقافية (مثل التعددية الثقافية وما شابه)، وأن نخب اليمين واليسار التقليديين تقاربت إلى درجة لم يعد من الممكن معها التمييز بينها بوضوح، وأنها انخرطت في مساومات مع بعضها البعض في الأطر ما فوق القومية، مثل الاتحاد الأوروبي وغيره، لفرص سياسات ورؤى باتت النخب المحلية تشعر أنها همشتها... ومن هنا ردة الفعل ذات الطابع القومي ضد تلك النخب وضد المؤسسات التي تدير العالم عبرها."

أضف إلى ذلك أن الأحزاب التقليدية أصبحت مجموعات بيروقراطية تشتغل بتعزيز امتيازاتها، وأنها باتت أقرب لاتحادات وسطاء يتداولون المال السياسي ويتوزعون المناصب العامة ويقاضون على القرارات المهمة، مما حولها إلى حقول للأجندات الخاصة التي انفصلت تدريجياً عن هموم الناس ومشاكلهم. لكن طرح المسألة بهذا الشكل لا يفيدنا حقها بتاتا، لأن أنصار الأحزاب التقليدية وأعضاءها لم ينتقلوا منها بالجملة إلى أحزاب أخرى بديلة، يمينية أو يسارية، بل انتقل كثيرٌ منهم إلى حيز "المستقلين"، وبتاتوا يتعاملون مع الشأن العام "بالقطعة" و"بالنقسيط"، كما ازدهرت مجموعات وشبكات النشاط ذات "القضية الواحدة" (البيئة، المرأة، الطفل، الحقوق المدنية، التعليم، الصحة، الضريبة، الحرب، التدخل الخارجي، إلخ...) بديلاً عن البرامج العامة ذات القاسم الأيديولوجي المشترك والواضح التي كانت السمة المميزة لأحزاب القرن العشرين والتاسع عشر. كذلك يمكن القول أن تلك الظاهرة لم تقتصر على الدول الغربية وحدها، بل تحولت إلى ظاهرة عالمية بهذا المقدار أو ذلك، مع أخذ اختلاف الظروف المحلية بعين الاعتبار، إذ يمكن القول أن الحزب، بشكله التقليدي الذي تمثل نظرية التنظيم اللينينية ذروته (مبدأ المركزية الديمقراطية)، أفسح المجال لأحزاب الظاهرة الانتخابية أو حركات "الصيحة الإعلامية" على النمط الأمريكي، ومن ذلك مثلاً حزب أو حركة "إلى الأمام" En Marche التي أسسها الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون عام 2016، أو حركة "احتلوا وول ستريت" التي سَطَع نجمها عام 2011 ثم خَبَت، وربما يكون بالإمكان أن نضمّ للعنوان نفسه "شبكات" الجمعيات غير الحكومية الممولة أو غير الممولة أجنبياً (أحزاب القضية الواحدة).

ومن البديهي أن مثل هذه التطورات في ميدان العمل السياسي ألقت بظلالها الفاتمة على العمل الحزبي القومي واليساري المنظم في الوطن العربي، وكل العمل الحزبي الجاد في الوطن العربي، لتعمق الأزمة التي يعيشها بفعل عوامل أخرى سياسية هي موضع نقاش مطول في بلادنا منذ انهيار الاتحاد السوفياتي وانحسار المشروع القومي العربي وتفقد الاهتمام بالقضية الفلسطينية بعد مشاريع "السلام" وصعود تيار الإسلام السياسي إلخ... مما لا يدخل في النطاق المباشر لموضوعنا هنا. يكفي القول أن العوامل التي أضعفت العمل الحزبي على نطاق عالمي كانت على الأرجح ستفعل فعلها في بلادنا، ولو بدرجة أقل، حتى لو استبعدنا، لأغراض النقاش الراهن هنا، التأثير السلبي للعوامل السياسية الخاصة المتعلقة بنا كعرب. ولا يغير ما سبق من حقيقة كون العمل الحزبي القومي واليساري مستهدفاً طبعاً، لكنه كان مستهدفاً تاريخياً منذ نشأ، وبطريقة قمعية ودموية أحياناً، ولهذا فإن مدى نجاح استهدافه كان سيكون أقل بكثير لولا العوامل الإضافية التي أضعفت العمل الحزبي الهرمي والتماسك على نطاق عالمي في العقود الأخيرة.

ليس من العسير التكهّن أنّ أحد أسباب انحسار العمل الحزبي المنظم، بما يفترضه من ضرورة خلق أداة عامة لتغيير العالم وفق رؤية ومنهجية معينة، وبما يفترضه من إمكانية وأمل تغيير العالم بالعمل والنضال، هو انحسار الوعي الاجتماعي والعام لمصلحة الحس الفردي البراغماتي والاستهلاكي خلال العقود الأخيرة، وانحسار الوعي الفلسفي والفكري لمصلحة القطيعات الدينية من كل الألوان، مما أفرز ظاهرة التدين السياسي التي لا تقتصر على الوطن العربي فحسب كبديل للأحزاب السياسية. وحيث تمكن العمل الحزبي بشكله التقليدي من الاستمرار، فإنه وجد نفسه مضطراً للتأقلم، بالوحدة والصراع، مع التدين السياسي (الذي يكتسي لوناً طائفيّاً فوراً في مواجهة التدين السياسي ذي اللون الآخر،

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

مما يكرّس المرجعيات الطائفية على حساب الأحزاب)، وللتأقلم مع فكرة "تأمين" المصالح المباشرة والضيقة للأفراد أو "الزبائن" السياسيين (مما يخلق الحاجة للمال السياسي فوراً)، تحت وطأة الانقراض. فضعف العمل الحزبي هو في أحد وجوه انعكاس نمو الحسّ الفردي الانتهازي، الذي يتحوّل سياسياً إلى نزعة ليبرالية معادية "عقائدياً" للالتزام والانضباط الحزبيين، وانعكاس نمو النزعة الدينية، التي تتحوّل سياسياً إلى انتماء طائفي هو بالضرورة نقيض الحس العام، في كل أرجاء المعمورة. تبخيس الأيديولوجيا إذاً، بحثاً عن مصلحة فردية مباشرة أو عن وحي حقيقي أو مزيف، هو أحد الأسباب الرئيسية لضعف العمل الحزبي.

لكن، بالمقابل، ما هو دور الإنترنت والفضائيات بالضبط في إضعاف العمل الحزبي المنظم، إن كان لهما من دور؟ وهل هناك عامل "تكنولوجي" أدى موضوعياً إلى إضعاف العمل الحزبي؟ بتحديد أكبر، هل أصبح الإعلام الفضائي ووسائل التواصل الاجتماعي "بديلين" عمليين للعمل الحزبي؟

تقول الناشطة الفرنسية كلمنتين أوتين تعليقاً على الطريقة القديمة في العمل الحزبي التي ترى أن الزمن تجاوزها: "إن طرق عمل الأشياء - الاجتماعات العامة الطويلة، بجلسات تعقبها جلسات، والبيانات المطولة التي كانت توزع في الأسواق، واحتكار التحدث في اللقاءات من قبل من هم أكثر خبرة... - كل هذا يبدو أنه تمّ تجاوزه بنمو الإنترنت والتضجر من الأشكال التقليدية للنضال" (الأومانتية الفرنسية، 12 كانون الثاني 2017).

نضيف أن الإنترنت بتسهيل وتخفيض كلفة الوصول للمعلومات، وأن وسائل التواصل الاجتماعي باتاحتها الفرصة لأي كان في أن يشارك بالحوار العام وفي أن يؤسس شبكات أو مجموعات افتراضية مفصلة بحسب أولوياته الذاتية، وفي أن يعرض آراءه وأن يصبح "إعلامياً" في الفضاء العام، نقول إن الفضاء الافتراضي أسهم، باتاحتها مثل هذه الأدوار، في إضعاف دور الأحزاب (لا وسائل الإعلام الرسمية فحسب) كقنوات تواصل عامة مع المعلومة وكقنوات للتأثير في الأجندة العام والقضايا التي تُطرح فيها والتوجهات التي تتبناها، على الأقل يمكن القول أن تلك الأحزاب (والوسائل الإعلامية) لم تعدّ تستطيع أن تمارس دور "المحبس" على نقل المعلومة من وإلى الجمهور، وأن قدرتها على تحديد الأولويات فيما يطرح وما يتمّ تبنيه من توجهات في الفضاء العام بات أقل بكثير، من دون أن يعني ذلك زوال دورها، لا سيما أنها ككتل منظمة كبيرة نسبياً تتمتع بموارد قلما يمتلكها الأفراد أو المجموعات الصغيرة، وبالتالي فإنها قد لا تستطيع أن "تحجب" ما لا تريده أن يصل للفضاء العام، لكنها تظل أقدر من أي فرد أو جماعة صغيرة بمفردها على التأثير في الأجندة العامة وما ترى أنه من المفيد أن يتم "الترويج" له أو "خسفه" و"تجاهله". فالإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، بمقدار ما أضعفت "احتكار" الأحزاب لقنوات التواصل مع الفضاء العام والتأثير فيه، فإنها منحتها أيضاً فضاءاتٍ أرحب لنشر رسالتها وأجندتها، والعبرة تظل بالقدرة على التأقلم مع تطورات وسائل الاتصال الجديدة.

الفضائيات، بدورها، كسرت احتكارات وسائل الإعلام الرسمية في نشر الخبر والرأي والترويج لشخصيات "مفضلة" بعينها، لكنها تظل أقل اتساعاً من وسائل التواصل الاجتماعي، حتى لو أدى نشوء مئات الفضائيات الجديدة لإتاحة الفرصة لشخصيات كثيرة أن تتواصل مع الجمهور ممن كان من الصعوبة بمكان أن يصلوا لعرض واحد بالمئة من آرائهم عبر الفضائيات المسيطر عليها رسمياً قبل الأعمار الصناعية، لكن لعبة الفضائيات تظل لعبة موارد مالية وإعلامية ضخمة بمقاييس المواطن العادي، وهو أحد الفروق المهمة بينها وبين وسائل التواصل الاجتماعي، كما أن وسائل التواصل الاجتماعي تتيح فرصة أكبر بكثير للمشاركة، فيما تقوم الفضائيات على مبدأ الإلقاء والتلقي، أي تلقي المشاهد لما تبثه. لكن ما لا شك فيه أن الفضائيات أضعفت أيضاً من دور الأحزاب كقنوات تواصل مع، وتأثير في، الفضاء العام، إلا إذا امتلك الحزب فضائية ناجحة... وما ينطبق على وسائل التواصل الاجتماعي والإنترنت ينطبق أيضاً على الفضائيات، فالحزب لا يستطيع أن "يحجب" المعلومة والخبر والرأي والشخصيات غير المرضي عنها بالمقدار نفسه الذي كان يستطيعه سابقاً، لكنه يستطيع أن يؤثر في الفضاء العام عبر الفضائيات، بما يملكه من موارد قلما يمتلكها الأفراد والمجموعات الصغيرة، لو أحسن دخول الميدان الفضائي. وإذا كان لينين يرى في بدايات القرن العشرين أن الحزب الثوري لا يقوم من دون جريدة، فإن الحزب في القرن الواحد والعشرين لا يقوم من دون فضائية وموقع إنترنت (وصفحات ومجموعات على وسائل التواصل الاجتماعي، ومركز أبحاث حقيقي).



العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

الفضاءات المفتوحة تتطلب سرعة ومرونة تعيقها البنى والآليات البيروقراطية القديمة، وتتطلب حسن تقدير في تجاوز أطنان الهراء والرداءة والإسفاف التي تنتجها الفضاءات المفتوحة إلى جانب تحسين القدرة على الاطلاع والتواصل والتأثير و"التشبيك" في خضم السعي للترويج لرسالة الحزب وبرنامجه والرد على نقاده، مع العلم أن الرسالة والبرنامج نفسه باتت بحاجة لتطوير يأخذ بعين الاعتبار التغييرات التي أفرزتها التناقضات الجديدة في القرن الواحد والعشرين، فلا يجوز أن يبقى أسرى إرث القرن التاسع عشر والعشرين الذي استند انطلاق الأحزاب الحديثة إليه.

الحزب الحديث هو نتاج الثورة الصناعية في أوروبا، وفكرته هي خلق قوة جماعية منظمة تعبر عن مصالح طبقة شريحة اجتماعية مثل العمال أو الطبقة الوسطى أو البرجوازية، أما الأحزاب التي نشأت في العالم الثالث على خلفية حركات التحرر الوطني فكانت أحزاب فلاحين بالأساس، أو قادمين جدد من الريف للمدينة، مقابل أحزاب العالم الثالث التي كانت تمثل شرائح الإقطاع أو الكمبرادور. لكن نسبة العمال الصناعيين من القوة العاملة في المجتمعات الغربية في انحدار شديد منذ عقود، وهي لا تكاد تصل لعشرة بالمئة في الولايات المتحدة، وقد ترافق ذلك مع انتقال مركز الثقل في الاقتصاد من الإنتاج الصناعي والمكننة إلى العلوم التطبيقية والتكنولوجيا، مما غير الخريطة الاجتماعية الطبقيّة مع تغيير تركيبة الاقتصاد نفسها، فمن الطبيعي إذن أن تتغير طبيعة الأحزاب التي تنتجها البنى الاقتصادية-الاجتماعية الجديدة، وهو قانون ينطبق أيضاً على دول العالم الثالث التي لم تعد القوة العاملة الأساسية فيها من الفلاحين أو من القادمين الجدد من الريف، ولم تدخل في عملية تصنيع شبيهة بالتصنيع في أوروبا عقب الثورة الصناعية الذي أدى لنشوء حالة تمركز وتوسع في العمالة الصناعية، كما أن الثروة النفطية في بلادنا خلقت قوى عمل مهاجرة بالملايين مشلولة سياسياً، كما أن تلك الثروة النفطية نفسها أسهمت بتعميم "الوعي" التكيفي المضاد للانتماء القومي والاجتماعي، مما يضعف العمل الحزبي القائم عليهما بالتعريف، ناهيك عن دور تلك الثروة في تعميم أنماط ثقافية رعوية وقبلية تعزز من القابلية للتذمر في العمل السياسي العربي وهو ما تطرقنا إليه في العديدين 38 و39 من مجلة طلقة تنوير.

أضف إلى ذلك أن أحزاب القرن التاسع عشر والعشرين قامت في كنف الدول الوطنية لتطرح برامج ومشاريع تتعلق بطريقة إدارة تلك الدول المركزية، أما نزعة العولمة اليوم فتجرح باتجاه إضعاف الدول المركزية، وتفكيك الدول الوطنية، لمصلحة المشاريع الجهوية والمحلية، فليس من الغريب بعدها أن نشهد ازدهاراً في أحزاب الهوية الطائفية والمحلية مقابل الأحزاب الوطنية والقومية، وأن نشهد ازدهاراً في أحزاب الحركات الانفصالية، في حضن نزعات التأكيد على "التعددية الثقافية" مقابل القاسم المشترك الوطني والقومي، وهو ما يعكس بدوره التحولات في علاقات الإنتاج في ظل الإمبريالية من الصناعة، المحتاجة لأسواق قومية موحدة كمنطق لفتح العالم، مقابل نزعات اللامركزية التي تشكل نقيضاً موضوعياً لنشوء الأحزاب الوطنية وازدهارها في ظل مزيج المضاربة والربا الذي تعممه هيمنة رأس المال المالي الدولي في خضم ثورة علمية-تكنولوجية جديدة نقلتنا من المكننة إلى الأتمتة فخففت كلفة المقايضات، بحسب تعبير عالم الاقتصاد الأمريكي رونالد كوس Ronald Coase الذي اعتبر أن الشركة، ككيان مركزي، هدفه حشد الموارد التي تحتاجها لإنتاج السلع والخدمات، والتي سيكون من المكلف جداً التعاقد معها بالقطعة أو على أساس يومي مثلاً في السوق. ويرى أحد الكتاب الأمريكيين أن "الهواتف الذكية" قللت من كلفة المقايضات، أي كلفة التعاقد بالقطعة في السوق، إلى درجة قد تجعل الشركات أصغر حجماً بكثير، بما أنها لم تعد مضطرة للاحتفاظ بموارد وعمالة دائمة طوال الوقت، وإلى تقلص حجم الأحزاب السياسية ودورها (انظر Bruce Yandle، في المقالة التي عنوانها Are Political Parties Obsolete؟، في 11 تموز 2016).

لكن كل ما سبق لا يلغي حقيقة جوهرية هي أن الحزب، أو التنظيم السياسي، هو ضرورة موضوعية لممارسة العمل الجماعي المنظم الذي يعبر عن مصلحة شرائح اجتماعية لا تستطيع تحقيق أجندتها أو فرضها في الفضاء العام من دون شكل ما من أشكال التنظيم السياسي لا بد لها أن تتسم بقدر من المركزية حتى تتمكن من حشد الموارد السياسية والمالية والإعلامية وتوجيهها لتحقيق أجندتها. فالتطورات الجديدة في تكنولوجيا الاتصالات قد تغير من طبيعة العمل الحزبي، ومن طبيعة البنين التنظيمي، لكنها لا تلغي الحاجة لممارسة عمل جماعي منظم كأداة عامة لتحقيق أهداف عامة لا يمكن تحقيقها فردياً. والشبكات والتحالفات ربما تصلح للعمل على قضية واحدة بعينها، أما العمل لتحقيق مشروع وطني أو قومي، أو برنامج تغيير يتجاوز هذا المظهر أو ذاك من مشاكلنا الاجتماعية والسياسية، فلا يزال بحاجة لحزب، جديد، مختلف، متأقلم مع الظروف الجديدة، لكنه حزب في النهاية. أما الهجمة على الأحزاب الوطنية بأدوات الهويات الفرعية، الطائفية أو غيرها، وبأدوات العولمة وشعارات اللامركزية، فتؤكد على ضرورة الحزب الوطني المركزي أكثر من أي شيء آخر.

## تاريخية السيرة (2) - الأناجيل كمصدر للسيرة!

محمد العملة



اختتمت الجزء الأول من هذه المقالة بالحديث عن القرآن كمصدر أولي وأساسي في تاريخ السيرة النبوية، وأوردت فيها الججاج التي أخذ بها "هشام جعيط" للاعتماد عليه، وذكرت أن كتب السيرة الأولى -حتى نهاية القرن الثالث للهجرة- هي المصدر الثاني، وفي هذا الجزء سأحدث عنها بشيء من الإسهاب للإجابة على تساؤلات ووجهة، لماذا كتب السيرة الأولى؟ ولماذا نستنتج المحدث منها؟ وما السبب وراء اعتمادها كمصدر ثانٍ بعد القرآن؟

### المغازي:

بدايةً، لا تدخل كتب السيرة في المدونة الإسلامية التقليدية، أي القرآن وكتب المرويات الحديثية المسماة "السنة النبوية"، إلا أنها تضبط مسار النبي من ميلاده حتى موته، وجهده في أداء رسالة الإسلام، والحق أن استبعادها له علاقة بالصراعات الأولى بين أصحابها وأهل المذاهب الفقهية، لدوافع سياسية، ولوجود تناقضات بين المدونتين بشكل أو آخر.

كتب السيرة الأولى كانت نتاجاً للقرنين الثاني والثالث للهجرة، وظهرت فيها نية إحياء الماضي واستكشافه بمجهود بحثي حقيقي قوامه أناس نشطوا في الفترة بين أواخر القرن الأول ومنتصف الثاني للهجرة؛ مؤسسين ما سمي بعلم المغازي الذي بُنيت السيرة عليه؛ فهو لبّ السيرة وأساسها، وأصحابه هم الذين أخذت رواياتهم الشفهية والأخبار التي

جمعوها لتوضع في كتب السيرة لاحقاً، ويستوقفنا هنا تساؤلٌ مهم، لماذا ظهرت المغازي تحديداً في أواخر القرن الهجري الأول؟

يرى هشام جعيط، أنّ الفتن التي عصفت بالدولة العربية الأموية أحرّت ظهور علم المغازي، وكانت فتناً على علاقة بالتناقضات السياسية الاجتماعية القائمة آنذاك، منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي، ثم موت يزيد بن معاوية، وما تلا ذلك من إخماد فتن الخوارج على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، وصولاً لثورة ابن الأشعث عام 83 للهجرة، وبعدها حصل استقرار ملحوظ ساهم في بزوغ وعي تاريخي رصين؛ إذ أن لحظة توقف الفتن جاءت بوقفة تأمل وبتصور الذات العربية المسلمة لذاتها، وبروز معادلة دقيقة بين السياسة والدين والتاريخ والذاكرة، ساهم فيها نشوء وعي بعظمة الإمبراطورية الجديدة منذ أيام عبد الملك بن مروان، ممثلة في بداية تعريب الدواوين وسك النقود العربية، وانتشار عرب الجزيرة في حواضر جديدة.

رواة المغازي في معظمهم مدنيون -نسبة للمدينة المنورة-، ولعل ذلك يعود للمعرفة التاريخية بأبائهم الأنصار، أي أن تمثيل تاريخ آبائهم واسترجاعه هو في نهاية المطاف استرجاع لتاريخ النبي العربي الذي أسس المجتمع المسلم الأول في مدينتهم. هذا الهم التاريخي له بالطبع مشرب ديني أكثر مما له علاقة بالتوق الحضاري أو الصراعات السياسية؛ فحواضر الجزيرة العربية احتفظت لنفسها بمكانة روحية بعد أن اتسعت رقعة الدولة، وتوزع الثقل الجيوسياسي في العراق والشام تحديداً، أو ما يمكنني أن أعبر عنه بالقول، أن أهل الجزيرة الذين بقوا فيها لم يكن لهم ذلك الولاء السياسي الموجود لدى أهل الشام والعراق، خصوصاً منذ انتقال عاصمة الدولة العربية المسلمة خارج إطار حدود الجزيرة العربية.

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

هذا بالطبع يجعل المغازي تختلف في طبيعتها عن المرويات الحديثية التي تضخمت مدونتها مع مرور الزمن بفعل الصراعات السياسية وتطورات المذاهب الفقهية، ومع أن أهل الحديث يطعنون في المغازي عموماً، إلا أنهم يرونها من منظورهم الخاص بتدقيق الأسانيد وسلسلة الرواة، ولا يتسع المجال هنا لتعداد الإشكالات المنطقية في هذه المسألة، لكن ما له علاقة بموضوعنا أن ابن شهاب الزهري الذي نقل عنه كتاب السيرة الأوائل معظم المغازي، يعد عالماً أساسياً في نقل المرويات الحديثية في كتب ما يسمى "الصحيحين"، بل إن أقدم مؤلف بين أيدينا يستخدم الإسناد هو سيرة ابن إسحاق، ومن بعدها موطأ الإمام مالك، أي أن حجة أهل الحديث تدينهم في هذه النقطة بالذات.

## السيرة:

أقدم كتب السيرة، بالطبع، هي سيرة ابن إسحاق المؤرخ لوفاته عام 151 للهجرة، واسمها يدل عليها وعلى محتواها، يأخذ فيها ابن إسحاق عن رواية المغازي الكبار: الزهري، عاصم بن عمر، يعقوب بن عتبة، عبدالله بن حزم، وآخرين لا يسميهم ابن إسحاق بأسمائهم، لكنه يطلق عليهم لقب "أهل العلم".

يعتقد الكثيرون أن السيرة الأشهر تعود لابن هشام المتوفى تقريباً عام 218 للهجرة، لكنه يأخذ معظم سيرته عن ابن إسحاق، وبالكد يتدخل في تصحيح خبر ما، أو للطعن في حوار أو أشعار منقولة أوردها ابن إسحاق، فابن هشام مهذب لسيرة ابن إسحاق ولم يؤلف السيرة فعلياً. الأمر الآخر أنه (أي ابن هشام) متأخر بجيلين عن ابن إسحاق، فلم يكن له أن يسمع من الزهري مباشرة، على عكس الأول الذي أخذ عن الزهري دون وساطة لأنه كان معاصراً له في الزمان والمكان، أي في المدينة المنورة، الأمر الذي لم يتأتى لابن هشام لأنه بصري -نسبة للبصرة- التي برع أهلها في اللغة والنثر والشعر، لكنهم لم يصلوا لما لدى أهل المدينة من مصادر بخصوص المغازي والسيرة -وهم يشكلون المادة القديمة لسيرة النبي- ولهذا تبقى كتب السيرة المدنية أفضل من مثيلاتها.

قبل الحديث عن كتب السيرة بشكل مفصل، يراودني سؤال مهم، إذا كانت المغازي نتاجاً لأواخر القرن الأول حتى منتصف الثاني الهجري، فلماذا تأخر تدوينها في كتب السيرة وصولاً للقرن الثالث الهجري؟

قلنا أن أغلب المصادر الأولية الشفهية تعود للفترة الأموية، لكن مرحلة التدوين الفعلية بدأت خلال الفترة العباسية مع تطور الحواضر العربية خصوصاً في العراق، وانتقال عاصمة الدولة إليها، وخلال تلك الفترة نشأت مدارس الأنساب والأخبار في الكوفة وغيرها، واهتم العباسيون بتدوين كل ذلك. الأمر الآخر، أن الدولة العباسية قامت على اسم القرابة من النبي العربي؛ فتاريخه يتقاطع مع ما أراده خلفاؤها ليكون تاريخاً لهم، وبذلك سَعَوْا لإبراز كل ما له صلة بالنبي وبني هاشم، وهو ما لم يكن موجوداً عند بني أمية لاعتبارات صراعاتهم السياسية مع بيت النبي، أي مع بني هاشم.

## نقد أولي:

بالإضافة لسيرة ابن إسحاق، تعتبر مغازي الواقدي، وطبقات ابن سعد، وأنساب الأشراف للبلاذري مصادر أولية لقراءة السيرة، إلا أن سيرة ابن إسحاق هي الأقدم، والمفترض أنها الأصح رغم التشويش الملحوظ فيها، والذي قد يكون علامة على قديمها وقربها من الأصول، لكن بشكل عام، تتفق السيرة على الأساسي من الأحداث وتأخذ من بعضها البعض.

صحيح أن هناك صعوبة في تصور بداية الرسالة في مكة، لأن التاريخي هنا يتداخل مع اللاتاريخي (الماورائي)، وهو ما لا نجده في الفترة المدنية -القريبة أكثر من التاريخي-. مع ذلك لا يمكن التعويل على ما يقوله الاستشراق الجديد في نفي ما جاء في كتب السيرة الأولى عن تاريخ النبي والخلفاء الأوائل، أولاً لعدم وجود دراسات تاريخية وافية في نقد كتب السيرة، وثانياً لأنه ينافي المنهج التاريخي السليم.

في المقابل، نجد عند قراءة كتب السيرة حوارات وأشعاراً وُضعت أساساً لملء فراغ تاريخي كبير يختص بالفترة المكية، وأعزو سبب ذلك إلى أن القرآن أراح كل ما يسمونه "معجزات" عن النبي، لأنه نصٌ صحيح تاريخياً -كما ذكرنا في الجزء الأول-، فكان لا بد للسيرة بوصفها موروثاً (ما بعد القرآن) أن ترسخ الإسلام لدى العامة، وتنافس الأديان الأخرى التي تمتلك سرديات كاملة عن مؤسسها.



العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

النقطة الحساسة تتعلق بالفترة المكية، ولهذا اعتمدنا القرآن كمصدر أساسي، لاحتوائه على معلومات مهمة حول طفولة النبي وجدالاته مع قومه، وتفاصيل دعوته، وما أضافته كتب السيرة أنها أدخلت الخيال التاريخي لمحاولة بناء سردية حول آية ما، أي أنها تفسير تاريخي للقرآن؛ فابن إسحاق مثلاً، يدل على خبر ما بآية، أي أنه يستشهد بآية قرآنية بعد أن يذكر واقعة معينة في حياة النبي معتقداً أن الآية شاهد على خبر الرواية، لكن الناظر في السيرة يعلم أن المسألة معكوسة، فالخبر الذي يورده يأتي مفسراً لآية قرآنية هي الأصل والأساس. لكن، والحق يقال، فإن ابن إسحاق يورد آيات كثيرة لتدل على حادثة معينة، مع أن الآية لا علاقة لها بموضوع الحادثة، وما يساعد في كشف هذا هو جهد بعض المستشرقين مثل "بلاشيه" و"نولدكه" في ترتيب سور النص القرآني حسب وقت نزولها، وهذه المسألة سنتناولها عن كثب، إنما في سياقات لاحقة.

**أما بالنسبة للمصادر الأخرى التي ذكرتها آنفاً، فهي مهمة لأسباب عديدة منها:**

- أن ما فيها ينطبق على ما في سيرة ابن إسحاق.
- الواقدي لديه تفاصيل غنية عن المرحلة المدنية، لكننا في قادم الأجزاء لن نلتفت إليه كثيراً، لأن الاهتمام منصب على قراءة تاريخ الفترة المكيّة من الدعوة المحمدية.
- طبقات ابن سعد تعطي معلومات إضافية عن البدريين من المسلمين الأوائل، وهو نقل عن أستاذه الواقدي، واهتم بتدقيق التواريخ.
- البلاذري، وهو نسابة في الأصل، وليس مؤرخاً بالمعنى الكلاسيكي، اهتم بالبحث في الأشخاص وتراجمهم، ومن حسن حظه أنه اعتمد على كل من سبقه لوجود فترة زمنية بينه وبينهم. والبلاذري يركز على المسائل الأساسية ويتعد عن التفاصيل الزائدة، فمنهجه يعتمد على البحث والعرض ثم التثبيت والعقانة، وكلها متأنية من الفرق الزمنية الذي ذكرناه، ولعدم تجاوزه القرن الثالث الهجري الذي ما زال حساساً للماضي.
- تاريخ الطبري في كونه واضح الإطار النهائي للسيرة، واعتماده على مصادر متعددة منها ما هو مفقود كموسى بن عقبة، ولأنه يروي سيرة ابن إسحاق عن غير طريق ابن هشام، كما يورد رسالة عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان -التي سنأتي على أهميتها في الأجزاء القادمة-.
- كتابا "المحبر" و "المنمق" لابن حبيب، لما فيهما من إشارات إنثروبولوجية مهمة عن حياة العرب قبل وخلال الإسلام.

محصلة الأمر، أن كتب السيرة الأولى أعطت المخيال المسلم إطاراً كاملاً لحياة النبي، فازدادت سلطتها على الضمير المسلم، وبنت نفسها في الوعي الجمعي، وهي على ما يقول هشام جعيط، تشبه الأنجيل الرسمية والمزيفة التي أعطت المخيال المسيحي تفاصيل حياة المسيح، فنجد أن ابن إسحاق وجيله نسجوا على منوال الأنجيل، لأنها (أي الأنجيل) في نهاية المطاف تاريخ المسيح أو أنها أرادت ذلك لنفسها. إن ابن إسحاق عرف إنجيل يوحنا بالسريانية، وهو يستشهد به عند إبراز معنى كلمة (البارقليطس/ البارقليط أو المحمدان)، ويبدو أن المؤرخين العرب في ذلك الوقت فهموا أن الأنجيل كتب تاريخ تتقاطع فيها أقوال وعظات للمسيح، وليست على منوال القرآن الذي يبوح عن نفسه أنه من عند الله، ويحتوي تفاصيل الدعوة.

بقي لي أن أقول في هذا السياق، أن لنا عودة لقراءة نقدية لما في كتب السيرة، لمحاولة الخروج بمسار منطقي لحياة النبي ودعوته، ولن يتم هذا قبل الخوض في مرحلة ما قبل الإسلام، أعني بقراءة أنثروبولوجية للمحيط الداخلي والخارجي الذي نشأت فيه الدعوة.

يتبع

## منبر حر: ألف عام من تاريخ وطننا

فارس سعادة



ليس من السهل الكشف عن الأحداث التي تحدث في الحاضر في كثير من الأحيان حيث أنها حالما تقع، تصبح من الماضي، واحتمالية تسجيلها بشكل تفصيلي ودقيق تصبح عملاً شاقاً وصعباً. حتى في عصر التقنية، ليس من السهل الوصول إلى الحقيقة وذلك ببساطة لأن الحقيقة نفسها نسبية يمكن النظر إليها من خلال العديد من الزوايا؛ فلكل فرد أو جماعة معينة في العالم نظرة مختلفة للحقيقة. التاريخ هو علم دراسة الماضي البشري و"تاريخه" من خلال الكتابات الإنسانية واللقى الأثرية وكل ما تركه الإنسان أو أثر فيه وفي محيطه، أي الطبيعة. التاريخ هو كل شيء مادي وغير مادي يمكن الاعتماد عليه بنسب مختلفة، ويعتمد على الكثير من العلوم الأساسية من علم الآثار "الأركيولوجي"، وعلم الإنسان "الأنثروبولوجي"، وعلم المناخ والبيئة وغيرها من علوم الإنسان التي يمكنها تزويد الباحث في الماضي أكان مؤرخاً أم عالم آثار.

صحيح أن الكثير من الأحداث الكبيرة والكوارث التي أصابت الإنسان لم تتجرد لنا إلى الآن، ومن نافل القول إن هناك أسراراً لم ولن يتم الكشف عنها إلى الآن في تاريخ البشرية. كيف انتهت حضارة ما بهذا الشكل؟ لماذا تدهورت حضارة أحد الشعوب خلال أعوام قليلة، رغم أنها كانت قبيل انهيارها حضارةً مزدهرةً قويةً تمتلك

أغلب نواميس التقدم والعلم والقوة؟ أسئلة كثيرة تُطرح بشكل دوري غير منتهٍ. ويحاول الباحثون التصدي لها عبر العلم والمنهجيات المختلفة؛ فرضيات أو نظريات كثيرة تستحدث كل عام حول هذه الأسئلة الصعبة والحقيقية لتجيب بدرجات متفاوتة من الدقة، بعضها يصل إلى الكثير من الحقيقة وبعضها ينير بعضاً من جوانبها الخفية.

أحد أهم الألفيات التي مرّت على تاريخ البشرية في منطقة حوض المتوسط وما حولها هي الألفية الثانية قبل الميلاد الممتدة من 2000 قبل الميلاد ولغاية 1170 ق.م تقريباً، هذه الفترة التي حملت معها أنماطاً عديدة على المستوى الاقتصادي-الاجتماعي وفترات "مدّ وجزر" حضاري وثقافي استطاع خلالها الإنسان توسيع حلقة التواصل الاقتصادي-السياسي حتى وصلت مستوى "عالمي" اتصلت فيه الحضارات والثقافات المختلفة مع بعضها من خلال الاقتصاد بشكل أساسي - التجارة - من مناطق وسط آسيا إلى جزر البحر المتوسط وشمال إفريقيا ومصر وصولاً إلى السودان.

شهدت بداية الألفية الثانية قبل الميلاد وقبلها بفترة بسيطة عدة تغيرات ديموغرافية ومناخية أجبرت الجماعات الرعوية "الأموريين" أو العموريين في مناطق وسط وشمال سورية على الانتقال بشكل عنيف نحو الجنوب والشرق أي إلى مناطق فلسطين والأردن ونحو الجزيرة الفراتية في مناطق العراق وسورية على شكل موجات من الغزو والحرب، استطاعت خلالها هذه الجماعات الرعوية التي تشكل جزءاً مهماً من النسيج الاجتماعي للمنطقة تأسيس عدة ممالك من أهمها بابل في العراق على نهر الفرات ومملكة يمحاض وعاصمتها حلب وقطنا في سورية على نهر الفرات أيضاً، وقد شاركت هذه الجماعات بشكل أساسي بتشكيل الحضارات والدولة البابلية "حمورابي" والدولة الآشورية "شمش أد".

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

أما في الدولة المصرية خلال الثلاثمئة عام الأولى من الألفية الثانية قبل الميلاد، فقد حدث الكثير من التغيرات في مصر أهمها بداية عهد الدولة الوسطى في مصر وما تراقق معها من نقل للعاصمة من طيبة إلى "أثيت تاوي" في منطقة الفيوم وإعادة الوحدة السياسية لمصر وصدّ هجمات الليبيين وجماعات النوبة. في هذه الفترة كانت مصر تعدّ إحدى أقوى الدول في منطقة حوض المتوسط؛ إذ أنها بسطت نفوذها الاقتصادي والسياسي نوعاً ما وإن بشكل ناعم على جنوب بلاد الشام والسودان وصولاً إلى لبنان حتى أنّ هناك بعض الإشارات التي تشير إلى أن أوغاريت في سورية كانت تتبع للحاكم المصري!؛

هذه هي الصورة العامة للمنطقة الممتدة من سواحل شرق المتوسط وبلاد ما بين النهرين وسورية الداخلية ومصر خلال 300 عام تقريباً، الممتدة من 2000 ق.م إلى غاية 1700 ق.م، والتي أسست نظاماً اقتصادياً عالمياً يمتد من أفغانستان "مناجم القصدير" مروراً بالأناضول وسورية مخترقاً البحر الأبيض المتوسط إلى قبرص "مناجم النحاس" وجزر بحر إيجه والجزر الإيطالية ومن بلاد ما بين النهرين إلى سواحل شرق المتوسط في أوغاريت وجبيل وكنعان وصولاً إلى مصر. هذه الشبكات التجارية التبادلية غيرت الأنماط الاقتصادية التقليدية وبالتالي خلقت نوعاً جديداً من العلاقات السياسية "الدبلوماسية" بين حواضر المنطقة بحيث أصبح التواصل الاجتماعي معقداً وواسعاً بشكل كبير لم يكن موجوداً في تاريخ البشرية قبل هذا التاريخ، وهذا ما سينتج عنه صراع في كل المنطقة عززه دور البيئة والديموغرافيا خلال الفترات اللاحقة انتهى بما يسمى بـ "كارثة العصر البرونزي الأخير"!

خلال هذه الفترة، وبسبب موقع جنوب بلاد الشام المتوسط لطرق التجارة بين مصر وسورية وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، ازدهرت دويلات المدن بشكل كبير مما أتاح لها تعزيز دورها التجاري وبالتالي السياسي في المنطقة وهذا ما دلّت عليه آثارها الباقية إلى الآن من أسوار ضخمة ومعابد وبقايا المباني الإدارية والموانئ، في الوقت الذي كانت ممالك ماري، يمحاض، قطنا، وأوغاريت تزدهر بشكل كبير وتتصارع في نفس الوقت على طرق التجارة فيما بينها وبين الدولة البابلية والآشورية في العراق. خلال هذه الفترة كان هناك "تسرّب" للسكان من مناطق جنوب بلاد الشام إلى مصر يمكن أن يُعزى إلى الضغط السكاني على الموارد بسبب صغر مساحة الجنوب وربما لأسباب سياسية أو اقتصادية، والدلائل الأثرية المتمثلة بالفخار في مصر تشير إلى نمط "شامي-آسيوي" وبعض الأسماء لجماعات ذكرت في الكتابات المصرية القديمة في تلك الفترة. هذا الوجود السكاني "الآسيوي" في مصر ساعد، في رأي الكثير من الباحثين، جماعات رعوية على السيطرة على "مصر السفلى" أي شمال مصر أما "مصر العليا" فقد بقيت تحت حكم الملوك المصريين وعاصمتهم بقيت مدينة طيبة. أسست هذه الجماعات التي سميت بـ "الهكسوس" مدينة "زوان" كعاصمة لهم في مصر، وتشير أسماء ملوكهم إلى أن أصولهم من مناطق بلاد الشام وغالباً من جنوب بلاد الشام، إذ أن غزواتهم لمصر بدأت من مناطق صحراء النقب في فلسطين وحسبما وصفتهم الكتابات المصرية القديمة، فقد كانوا مقاتلين بارعين تفوقوا على الجيش المصري بالتقنية العسكرية حسب رأي بعض الباحثين وبالأعداد الكبيرة للمقاتلين. هذه الفوضى في مصر والتي امتدت لمدة مئة عام تقريباً كانت تقابلها فوضى أخرى في مناطق شمال بلاد الشام وفي مناطق بلاد ما بين النهرين، أي العراق، فقد تعرّض العراق لموجات هجرة وغزو من الجبال الشرقية في إيران "الكاشيين" أدت إلى سقوط أسرة حمورابي "العموري"، وفي شمال سورية ووسطها كانت الموجات "الحورية"، الآتية من الشمال "تركياء" قد أغرقت المنطقة بفائض سكاني بعضه كان على شكل غزو عسكري أدى إلى سقوط ممالك ماري و يمحاض وتأسيس ما يسمى في التاريخ بـ "مملكة" "ميتاني" الحورية.

كل هذه الأحداث وقعت في بداية القرن السابع عشر قبل الميلاد 1699 ق.م ولم تنته فعلياً إلا في بداية القرن الخامس عشر 1475 ق.م تقريباً. بحيث أن ملوك مصر في طيبة استطاعوا إنهاء حكم "الهكسوس" في مصر وطردهم إلى الأبد من مصر والسيطرة على جنوب بلاد الشام بشكل دائم، مما أدى إلى دمار أغلب المدن في فلسطين ولبنان وتقلص عدد هذه المدن بشكل كبير بسبب الحروب بين فلول "الهكسوس" والجيش المصري. وفي بلاد الشام شمالاً انتهت دول ماري و يمحاض لصالح دولة "حورية" هي مملكة "ميتاني" وبقاء دول مثل آشور في شمال سورية وبابل تحت حكم "الكاشيين" وفي مناطق تركيا كان "الحثيون" يتقدمون بشكل كبير بحيث أنهم سيتمكنون من منازعة مصر عسكرياً وسياسياً.



العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

هذه الصراعات التي لا يستطيع هذا المقال تفصيلها، ولا حتى كتاب واحد، كانت بداية لانهايار شامل وكبير في المنطقة بمساعدة الطبيعة، فما حدث من موجات هجرة سكانية كبيرة من مناطق الجبال في إيران وتركيا أثر بشكل كبير وجذري في مناطق بلاد الشام وبالتالي مصر. هذه الهجرات قلبت موازين الديموغرافيا مما أدى إلى عدم استقرار سياسي وبالتالي اقتصادي. حالة عدم الاستقرار هذه استمرت لفترة طويلة بحيث أن الملك المصري أحمس بدأ حروب طرد "الهكسوس" وأكملها الملك المصري تحتموس الثالث بحيث سيطر على كنعان وجنوب سورية بعد ست عشرة حملة عسكرية، كان أشهر معاركها التاريخية هي معركة "مجدو" عند تل المتسلم بين الجيش المصري والجيش المكون من تحالف مئات الأمراء السوريين بقيادة ملك قادش في العام 1468 ق.م. ورغم سيطرة المصريين على كامل جنوب سورية ولبنان بقي الصراع في المنطقة قائماً بين الدول الحثية والميتانية والأشورية والمصرية، وقد توج هذا الصراع بسقوط مملكة "ميتاني" إلى الأبد على يد الحثيين بعد صراع طويل بينهما في نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد. كذلك قامت الفوضى في جنوب بلاد الشام خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إبان حكم الملك المصري أمنحوتب الرابع "أخناتون" الذي ترك جنوب بلاد الشام لوحدها تصارع البقاء لكونه مشغولاً بالدين الجديد المتمثل بالتوحيد "عبادة آتون" ونقله العاصمة من طيبة إلى "أخناتون"! هذا الفراغ في جنوب بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الذي تركه المصريون، كان سبباً في اشتعال الحروب والصراعات الداخلية في جنوب سورية ولبنان وصولاً إلى حلب، وكان مما زاد الأمر سوءاً وصول جماعات "Suti" الساشو والعايرو البدوية إلى مناطق جنوب بلاد الشام حيث أحرقت ودمرت الكثير من المدن، ورسائل تل العمارنة المرسلة من ملوك وحكام المدن الكنعانية والفينيقية تبين بشكل تفصيلي سوء الوضع خلال هذه الفترة وتوضح كيف أن الصراعات الداخلية والهجمات البدوية دمرت البنية الاقتصادية والاجتماعية لمنطقة فلسطين تحديداً.

في المحصلة تحولت منطقة جنوب بلاد الشام والجزيرة الفراتية إلى ساحة صراع بين الدول المتصارعة في حوض الفرات أو بين حكام وأمرء المدن في جنوب بلاد الشام ولبنان ولم تتخللها سوى فترات سلام قصيرة لم تستطع إعادة الاستقرار الطويل للمنطقة حتى في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد بعد معركة قادش في وسط سورية بين جيوش مصر وجيوش الحثيين في العام 1274 ق.م التي رسمت مناطق نفوذ الدولتين لفترة محدودة. وهنا جاء دور الطبيعة الحاسم خلال القرن الثالث عشر حيث أن الطبقات الجيولوجية تشير إلى فترة جفاف ضربت المنطقة التي تمتد من إيطاليا وجزرها إلى جزر بحر إيجه والمتوسط ومناطق بلاد الشام ومصر. هذا الجفاف أدى كما يبدو إلى موجات هجرة كبيرة من الجزر الواقعة قبالة السواحل الإيطالية وجزر بحر إيجه في اتجاه جزر كريت واليونان "مسينيا" حتى سواحل بلاد الشام وتركيا ومصر عبر موجات بشرية هائلة خلال مئة عام أدت إلى سقوط كل من الدولة الحثية إلى الأبد، وأوغاريت، وإيبلا، وفتيقيا وكنعان، وضربت الدولة المصرية بحيث أنها لم تنهز لكنها لم تعد إلى سابق عهدها قط فتفوقعت على نفسها.

سُميت هذه الموجات البشرية بـ "شعوب البحر" وذلك بالعودة إلى النصوص المصرية التي سمّتها بهذا الاسم ووصفتها بأنها موجات سكانية تأتي عبر السفن بأعداد كبيرة تحمل المقاتلين والأطفال والأمهات، موجات لا تنتهي! استطاع المصريون صدّ هذه الهجمات إلى حد كبير لكنهم لم يصمدوا إلى الأبد لذلك قرروا الانسحاب إلى الداخل المصري والاحتماء بالمدن المحصنة. وقد نشرت الكثير من الدراسات حول هذه الموجات البشرية لأهميتها التاريخية بحيث أن المنطقة قد تراجعت كثيراً وأصبحت تعيش في عصور ظلام وانحطاط "حضاري" فقد وصف الباحثون ذلك بقولهم أن الناس في مناطق سورية نسوا الكتابة والقراءة رغم أنهم من طوروا أبجدية الثلاثين حرفاً في أوغاريت "رأس شمرة" وتراجعت تقنيات صناعة الفخار واختفت الموانئ الرئيسية ودمرت المدن، ولم تقم لبعضها قائمة بعدها كما أوغاريت مثلاً! مناطق الجزر في قبرص وكريت دُمّرت فيها الحضارة واختفت المدن لمئات السنين، وقد وُجد أن أهل هذه المدن قد هربوا إلى رؤوس الجبال في كريت للاحتباء من "شعوب البحر"!

استطاعت المنطقة في مصر وجنوب بلاد الشام وسواحل سورية ولبنان استيعاب هذه الموجات البشرية بشكل حضاري فيما بعد بحيث أن هذه الجماعات البشرية قد ذابت في المحيط الكبير للمنطقة ولم تؤثر بقدر ما تأثرت من جميع النواحي الثقافية والحياتية الاجتماعية من لغة ودين وما إلى هناك من تراث مادي وغير مادي.

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

هذا الفراغ الذي حدث خلال نهاية القرن الثالث عشر، "نهاية البرونز" وبداية القرن الثاني عشر، بداية العصور الحديدية، يستخدم من قبل الباحثين الأثريين الصهاينة للقول بأن الجماعات "الإسرائيلية" قد تسللت إلى كنعان خلاله وثبتت لها موطن قدم فيها! وهذا كلام باطل تنقضه اللقى الأثرية في فلسطين وما حولها من خلال الفخار مثلاً، بحيث أثبت الأستاذ معاوية إبراهيم مثلاً أن الفخار الذي ظهر في هذه الفترة في مناطق الجبال في فلسطين ظهر أيضاً في مناطق شرق نهر الأردن، وهذا دليل بسيط على الوحدة الحضارية في منطقة جنوب سورية ودليل على الوجود السكاني في مناطق شرق النهر كما غربه، لذلك لا يستطيع أحد الحديث عن فراغ سكاني في المنطقة ككل في هذه الفترة تحديداً.

هذا ملخص ما حدث خلال ألف عام تقريباً بشكل عام بحسب الرسائل المتبادلة بين دول المنطقة ومدنها وبالعودة لنتائج الدراسات والتنقيبات الأثرية في المنطقة، ونتائج الدراسات الطويلة للمناخ والبيئة بجهود باحثين وعلماء كثر لا حصر لهم في شتى المجالات. اختفت دول إلى الأبد مثل دولة الحثيين وحضارة دويلات المدن في كنعان وسورية ولكنها عادت رغم ذلك ولكن بعد قرون عدة، فما حدث كان نتيجة صراع طويل بين البشر أنفسهم وبين البشر والطبيعة وانتهى ببداية عصر جديد وحقبة جديدة في تاريخ المنطقة والبشرية.

## الصفحة الثقافية: حال الغناء العربي

طالب جميل



يبدو أن الانحطاط والانحدار الذي أصاب أمتنا العربية في العقود الأخيرة انعكس على كافة جوانب ومجالات الحياة، ويبدو أن هذه الكبوة امتدّت لتشمل كل التفاصيل التي تؤثر في حياتنا، فلم يكن هذا التدهور على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري أو على مستوى التنمية فحسب، بل امتد ليشمل الجانب الثقافي بما فيه الفن بكافة أشكاله.

ولأنّ الغناء شكلٌ مهم وأساسي من أشكال الفن، فقد أصابه ما أصاب الفن بشكل عام، حيث أصبح الغناء العربي في حالة متردية مقارنة مع ما كان عليه في أواسط القرن العشرين، فقد مرت الأغنية العربية بحالة من الازدهار على مستوى الأصوات الغنائية والكلمات والألحان والمستوى، كما كان الشكل العام للأغنية أفضل وأرقى بكثير مما هو عليه هذه الأيام.

ففي بداية القرن العشرين شهدت الأغنية العربية نهضة حقيقية بعد مرحلة التتريك الطويلة التي فرضها الاحتلال العثماني، وبرز في تلك المرحلة مجموعة من الرواد مثل (سيد درويش، أبو العلا محمد وعبد الحمولي) وغيرهم، فكانت تلك المرحلة مرحلة تجديد ونهضة في الموسيقى والغناء العربي، وأصبح لتلك الأغنية حضورٌ طاغ في مصر ثم في لبنان وسورية والعراق، حيث تواجد عمالقة الغناء والتأليف والتلحين في تلك الأقطار، وساهم بعض الملحنين في إيقاظ الحسّ الفني العربي بتطوير الألحان البدائية التي كانت مستمدة من تأثيرات الموسيقى التركية والفارسية واليونانية والهندية ليصنعوا موسيقى عربية عصرية مستمدة من المقامات الشرقية.

ولعل ظهور عمالقة للغناء في مصر مثل (محمد عبد الوهاب، أم كلثوم، فريد الأطرش، سيد مكاي، عبد الحليم حافظ، زكريا أحمد، نجات الصغيرة، فائزة أحمد، وردة الجزائرية، الشيخ إمام) وغيرهم من عمالقة الغناء، بالإضافة إلى بعض الملحنين مثل (رياض السنباطي، محمد الموجي، بليغ حمدي، محمد القصبجي) وغيرهم، مع شعراء كبار مثل (ببزم التونسي، صلاح جاهين، فؤاد حداد، عبد الوهاب محمد، عبد الرحمن الأبنودي، محمد حمزة، أحمد فؤاد نجم) وغيرهم ساهم في بناء منظومة جميلة وبديعة للغناء العربي الشجي والعميق الذي أمتع الناس وبنى ذائقة راقية وذاكرة غنائية واسعة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن التجربة الغنائية في العراق لا تقل أهمية عن غيرها ولها خصوصيتها وتنوعها الرائع، والتي بدأت مع غناء المقامات العراقية الصعبة من خلال (محمد القصبجي، حسين الأعظمي) وغيرهم من الذين أدوا المقامات في المدن العراقية إلى الغناء الريفي في مدن الجنوب مع انتشار مقاهي الغناء والطرب، وبرز في تلك الفترة (حضيرى بو عزيز، ناصر حكيم، زهور حسين، عفيفة اسكندر، أنوار عبد الوهاب) وغيرهم، بالإضافة إلى عدد كبير من الشعراء والملحنين إلى عصر التجديد في هذا الغناء متمثلاً بأصوات مثل (ياس خضر، حسين نعمة، فاضل عواد، سعدون جابر، فؤاد سالم) وغيرهم.



العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

أما في لبنان فكانت هنالك فيروز مع الرحابنة (الذين كسروا النمط الطربي التقليدي وقدموا مع فيروز أغنية جديدة حسّنت الذائقة العربية، خاصة أنهم عملوا على التراث الفلكلوري واستعانوا بقصائد كثيرة من التراث العربي)، وكان هنالك (وديع الصافي، صباح ونصري شمس الدين) وملحنون مهمون مثل (فيلمون وهبي، زكي ناصيف وحليم الرومي) وغيرهم.

أما في أقطار المغرب العربي فساهمت أسماء كبيرة في صناعة مكانة للأغنية هناك مثل (عبد الوهاب الدوكالي، عبد الهادي بلخياط، نعيمة سميح) وهي أسماء مخضرة تألقت في صنع كيان خاص للأغنية المغربية العصرية. عموماً، لا يستطيع أحد أن ينكر أن الأغنية العربية وفي مختلف الأقطار العربية كانت بأفضل حالاتها، وكانت تشكل الأغنية العاطفية حالة وجدانية وطربية مؤثرة، أما الأغنية المتلزمة والأغنية الوطنية فكانت مصدر حماس للجماهير العربية من المحيط إلى الخليج خاصة في فترة المد القومي والكفاح المسلح، حيث كان لها دورٌ ثوري في بثّ الشعور بالانتماء وزيادة الرغبة بالتضحية في سبيل الأرض العربية.

لكن في العقود الأربعة الأخيرة دخلت الأغنية العربية بشكل عام في نفق مظلم بعد أن وصل الغناء لمرحلة متدنية وأصبح يطغى على المشهد الأغاني الهابطة والكلمات المبتذلة والألحان الركيكة والفوضى في إنتاج الأغنية، فصار كل ما هو رديء يتصدّر الحالة نتيجة تصدّي أنصاف الموهبين الذين يتعاملون مع الأغنية كسلعة استهلاكية الهدف من صنعها الربح، مما أدى إلى انحدار الذوق العام للمستمع وفقدان البهجة والمتعة، حيث صار شكل الأغنية العربية هجين من كلمات سطحية خالية من أي مضمون وألحان ركيكة ومستوردة وأداء باهت لتبدو غريبة عن ثقافتنا وحضارتنا. ولعل تفرّغ بعض الفضائيات العربية المدعومة من بعض القوى الرجعية للترويج لموجة من الغناء الهابط والرخيص، إضافة إلى قيامها بنشر وتسويق أفكار وثقافة وسياسة تلك السلطات الرجعية التي تمولها ومحاولة تلميع صورتها ساهم في تخريب وتدمير الذوق العام وتوجيه الرأي العام باتجاه المعايير الاستهلاكية وزيادة النزعة الليبرالية لدى الجمهور.

وقد لوحظ أنّ هنالك عملية وأد متعمّدة لكافة الأغاني الوطنية ذات الأبعاد القومية والملتزمة، خصوصاً تلك التي انتشرت في مرحلة المد القومي، وأي أغاني حماسية تثير الحماس في صفوف الشباب وتحرض على المقاومة والشهادة وتدعو لمحاربة العدو الصهيوني، حيث لم تعد تلك الأغاني على أجندة هذه المحطات والقنوات الفضائية لدرجة أن هنالك جيلاً من الشباب لم يسمع بمثل تلك الأغاني نهائياً، حيث تمّ استبدالها بالأغاني الهابطة ذات المضامين الفارغة والتي تساهم في تدمير الوعي والكسل والانشغال عن قضايا الأمة بهوم ساذجة وحياتية رخيصة، وقد زادت هذه العملية وتعززت منذ الثمانينيات، خصوصاً بعد الكوارث التي حلت بالأمة العربية والتي سُميت معاهدات سلام (كامب ديفيد، أوسلو ووادي عربة) وما تبعها من تنازلات وتشوهات أصابت كافة مناحي الحياة في مجتمعاتنا العربية بما فيها مجال الفن، ونتيجة لذلك وما رافقه من غزو ثقافي في عصر العولمة أريد للأغنية العربية أن تكون بلا هوية حضارية تميزها وبلا سمات فنية نابعة من وحي البيئة العربية، وأن تكون بعيدة عن كل القيم والأخلاق والعادات الاجتماعية العربية تمهيداً لصهر هويتنا في ثقافات الشعوب والأمم الأخرى.

عموماً، لا يمكن إنكار أن مشروع النهضة العربية والوحدة سيساهم في الرفع من سوية الفن بشكل عام والأغنية العربية تحديداً، كما ستعكس هذه النهضة على كافة مجالات الحياة وتفرز حالة فنية نخوية بشكل أو بآخر، لأننا نحتاج لمستوى من الغناء يليق بتاريخنا وحضارتنا ويتكى على لغتنا العربية وإرثنا العظيم من الشعر والأدب، بحيث يكون هذا الغناء جزءاً من الثقافة العربية ويحمل هوية عربية واضحة الملامح وتوجهاً نهضوياً، ويكون بإنتاج وتمويل من رأسمال العربي المنتمي، لي طرح ويتناول ويعالج قضايا أمّتنا العربية ويرتفع لمستوى يليق بالأمم الراقية والمتحضرة.

## المناعة التنظيمية عبدالناصر بدروشي



لا يخفى على المشتغلين في الحقل السياسي أن أي مشروع سياسي يقوم على ركيزتين أساسيتين ألا وهما المشروع السياسي والبرنامج من جهة، والأداة التنظيمية أو الرافعة من جهة أخرى.

ويبدو جلياً، أنّ في حالتنا اليوم كأمة عربية، أن التشكيلات السياسية العربية تعاني من خلل في كلا الجانبين (المشروع والتنظيم) (ولم يسبق أن اكتمل تنظيم).

لسنا بحاجة للتدليل على هذا الزعم الكبير، فمن يدّعي خلاف ذلك عليه أن يمدّنا هو بالدليل بعد عقود الانحطاط والتخلف التي مرّت بها أمتنا العربية والتي ازددنا خلالها احتلالاً وتجزئة وتخلفاً.

### في واقعنا السياسي العربي للأسف اليوم نجد أحد أمرين:

1/ أطروحات وحدوية ثورية فذة تحدد ملامح مشروع التحرر العربي، ظلت حبيسة الورقات التي كُتبت عليها ولم يفلح من تبنّاها حتى اليوم في بناء رافعة تنظيمية متينة وفعالة تتلقفها وتعمل على إنجازها وتحويلها إلى أمر واقع.

2/ تشكيلات سياسية عربية تمكّنت من امتلاك عناصر القوة ونجحت في بناء تنظيمات محصّنة وصلبة، إلا أنها إما عجزت عن تبنّي مشروع سياسي ثوري قادر على جمع الشباب العربي حوله، وإما انحرفت في الممارسة السياسية.

وفي حالتنا كقوميين جذريين نعتقد أننا نمتلك الطرح النظري

الأكثر تماسكاً والأقدر على جمع أمة العرب من حوله بسبب خطابه العابر للطوائف وللتلويحات المختلفة في مجتمعنا العربي المتنوع، وهو خطاب لا إقصائي ولا وجود لمنطق الأقليات فيه ولا الأغلييات. إلا أنّ امتلاك طرح نظري متماسك يؤصّل لمشروع النهوض القومي العربي في القرن الحادي والعشرين وحده لا يكفي، فبناء الرافعة السياسية للمشروع، أي التنظيم، يعدّ ضرورة لا غنى عنها إذا ما أردنا تحويل سطور الحبر إلى واقع ملموس. ومن هنا يأتي الاهتمام بقواعد المسلكية الثورية.

إنّ قواعد المسلكية الثورية لا تقتصر فحسب على الاهتمام بالبناء التنظيمي بل إن جزءاً رئيساً منها يعتني بتطوير البنيان وتحسينه حتى بعد تشييده، والعمل الدؤوب على ترميم مواطن الخلل في البنيان متى تمّ رصدها، فهي تلعب دور الحارس.

التنظيم السياسي ليس وعاءً جامداً، بل هو كائنٌ حي يجري عليه ما يجري على الأحياء، دائمٌ النمو مؤثر في حوله ومُتأثر به، وهو عرضة للإصابة بالأمراض وحتى للفناء. لهذا حرص العديد من الباحثين في المسألة التنظيمية على وضع جملة من القواعد التي تُعنى برفع فعالية التنظيم وتنظيم العلاقات بين أفرادها وتحدد الصفات والمعايير التي ينبغي توفرها في القادة والأعضاء وتنبه للأمراض التنظيمية التي تهدد البنيان وتؤدي إما لفناء التنظيم أو حرّف بوصلته.

لن ننقل على القارئ بسرد الأمراض التنظيمية التي سبق وأن جمعها العديد من الكتاب سواء في قواعد المسلكية الثورية أو في عدة ورقات وكراسات كتبت لهذا الغرض، ولكن سنكتفي بلفت النظر إلى نقطة مفصلية يمكن اعتبارها مدخلاً إلى كل الأمراض التنظيمية التي يمكن أن تصيب التنظيم الثوري المنشود.

العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

إنّ الأمراض التنظيمية على تنوّعها يبقى مصدرها واحد، وهو المجتمع الذي ننتمي إليه باعتباره الخزان الذي نعمل على استقطاب أفراده وتحويلهم من أفراد إلى مناضلين يعملون في صلب جهاز واحد على قاعدة العمل الجماعي المنظم. وبالتالي فإنّ الأمراض التنظيمية هي نفسها أمراض المجتمع.

أحد مظهرات الاحتلال والتجزئة والتخلف في مجتمعنا العربي هو انهيار المنظومة الأخلاقية وإصابتها في مقتل، ومنه شيوخ أخلاق وقيم جديدة حلت محل القيم الرفيعة التي كنا نمتاز بها كأمة عربية، فقد عرف عن العرب احترامهم للعهود والمواثيق ووفائهم بالوعود وقيم رفض الضيم وإجارة المظلوم والصدق والوفاء والإيثار.

كل هذه القيم مهمة جداً من منظور نضالي ثوري، فالثائر هو إنسانٌ خلق نقي تقوده الأخلاق المغروسة في جوارحه إلى الاستمرار في التضحية والفداء وتكران الذات وتحثه على الرفق برفاقه وتسيب مصلحة الجماعة التي ينتمي إليها على مصلحته الشخصية.

عملت الإمبريالية بجدٍ عبر وسائلها الثقافية الناعمة على تخريب مخزوننا الثقافي والقيمي في عملية إفساد ممنهجة فتحوّلت أخلاق مجتمعنا إلى المستوى المنحط الذي نراه اليوم بعد أن تفتتت بيننا الثقافة الليبرالية الانتهازية والأنانية. التنظيم الثوري هو من الشعب وإلى الشعب وينتقي مناضليه من صفوفه، ويفترض أن يضم التنظيم الثوري صفوف المجتمع إلا أنه لا يمكن أن نضمن خلوّ كل المناضلين تماماً من أي فيروسات تشكل تهديداً على سلامة البنيان التنظيمي. طبيعي جداً أن يزداد خطر انتقال الأمراض المجتمعية إلى صفوف التنظيم مع نموّه وازدياد شعبيته ولا يفترض أن يدفعنا خوفاً على التنظيم من الأمراض إلى الحد من الاستقطاب، فالثوار يناضلون في سبيل إصلاح أخلاق المجتمع وهي عملية طويلة تستوجب عقوداً من العمل على إصلاح ما تمّ إفساده، فالأهم على المدى المتوسط والقصير هو حماية أخلاق التنظيم، ومن أن تتسرب إليه أمراض المجتمع والقيم الهدامة.

## كيفية السبيل إلى الحفاظ على التنظيم حتى يقوم بالمهمات الملقة على عاتقه؟؟

### المناعة التنظيمية / مرض فقدان المناعة التنظيمية

تعرف متلازمة نقص المناعة المكتسبة في الطب على أنها مرض يصيب الجهاز المناعي البشري ويسببه فيروس نقص المناعة البشرية فيروسي إتش أي في (HIV) وتؤدي الإصابة بهذه الحالة المرضية إلى التقليل من فاعلية الجهاز المناعي للإنسان بشكل تدريجي ليترك المصابين به عرضة للإصابة بأنواع من العدوى الانتهازية والأورام.

والمقصود بالعدوى الانتهازية أو بالإنجليزية (opportunistic infection) هو العدوى الناجمة عن مسببات الأمراض التي لا تكون قادرة عادةً على إحداث أي عدوى في حالة الجهاز المناعي السليم. ولكن يعتبر حدوث خلل في الجهاز المناعي فرصة تنتهزها مسببات المرض لتحدث عدوى.

لو أسقطنا هذا الكلام الطبي على المسألة التنظيمية سنجد مفصلاً على قياسها، ونجد أن مقدار حصانة التنظيم مرتبط بمناعته كي لا يتحول إلى مرتع للأمراض، فإن استحالة عملياً ضمان نقاء جميع المناضلين في صلب التنظيم من جميع الأمراض بنسبة 100% فمن المُجدي العمل على تقوية مناعة التنظيم باستمرار كي يستطيع البنيان مقاومة أي اختراق، والاختراق هنا لا يقتصر فقط على محاولة جهة خارجية التغلغل في صفوف التنظيم عبر زرع عناصر في صفوفه بل هو مفهوم أشمل وأعم، فتسلل عنصر إلى صفوف التنظيم وهو ليس أهلاً للعضوية ومحاولات تخريبه لأسس التنظيم يعد اختراقاً حتى وإن لم يكن هذا العنصر يعمل لصالح جهة خارجية.

### ما هي المناعة التنظيمية وكيف تتم تقويتها :

مناعة التنظيم هي قدرته على مقاومة الأمراض عبر جهاز معين يوفر الحماية ضد كل عنصر أو سلوك دخيل على مبادئ التنظيم وقيمه ويتلخص دور جهاز الحماية أو المناعة في نقطتين غاية في الأهمية: الرقابة والمحاسبة.



العدد رقم (43) صدر في 1 كانون الأول عام 2017 للميلاد

إنَّ أول عملية استهداف لمناعة التنظيم يمكن استشعارها عند محاولة تحريف المفاهيم والمبادئ التي يقوم عليها التنظيم من قبل العضو المريض ليفلت من المحاسبة، فيبدأ "الفيروس" في عملية تحريضية لإقناع من يمكنه إقناعهم بأن ما يسمى انضباط ما هو إلا استبداد.. والمحاسبة دكتاتورية.. والالتزام تقييد للحرية...، وكل هذا حتى يتحرر العنصر المخرب من القيود التي تعيقه عن ممارسة مهمته التخريبية.

يشكّل تسلل المخربين إلى صفوف التنظيم خطراً على البنيان، والأخطر هو أن يكون الاختراق في الصفوف الأولى أو في الجهاز الذي يفترض أن يكون مشرفاً على البناء والرقابة.

**ويبقى السؤال مطروحاً: كيف يمكن تعزيز المناعة التنظيمية حتى نتمكن من حماية التنظيم وضمان استمراريته حتى تحقيق أهدافه؟**

مرة أخرى يساعدنا علم الأحياء في الاهتداء إلى الاجابة، ففي تفسير المناعة الفعالة نجد أن الجسم يكتسب هذا النوع من المناعة عند دخول مستضد معين عن طريق العدوى أو التلقيح، حيث تصبح الخلايا البائية الذاكرية والخلايا التائية قادرة على الاستجابة ضد أي هجوم لاحق من نفس المستضد بسرعة أكبر من سرعة استجابتها الأولى، وتكون الاستجابة المناعية اللاحقة أقوى من الاستجابة الأولى، وتدوم لفترة أطول.

إلى جانب قواعد المسلكية الثورية تبقى الممارسة العملية المحكّ العملي الذي يساعدنا في تطوير خبراتنا حتى لا نقع في نفس الخلل مرتين وحتى تتشكل لنا حاسة سادسة وقائية تمكننا من الاستشراق قبل الوقوع في المحذور.

قصيدة العدد: ولكن...

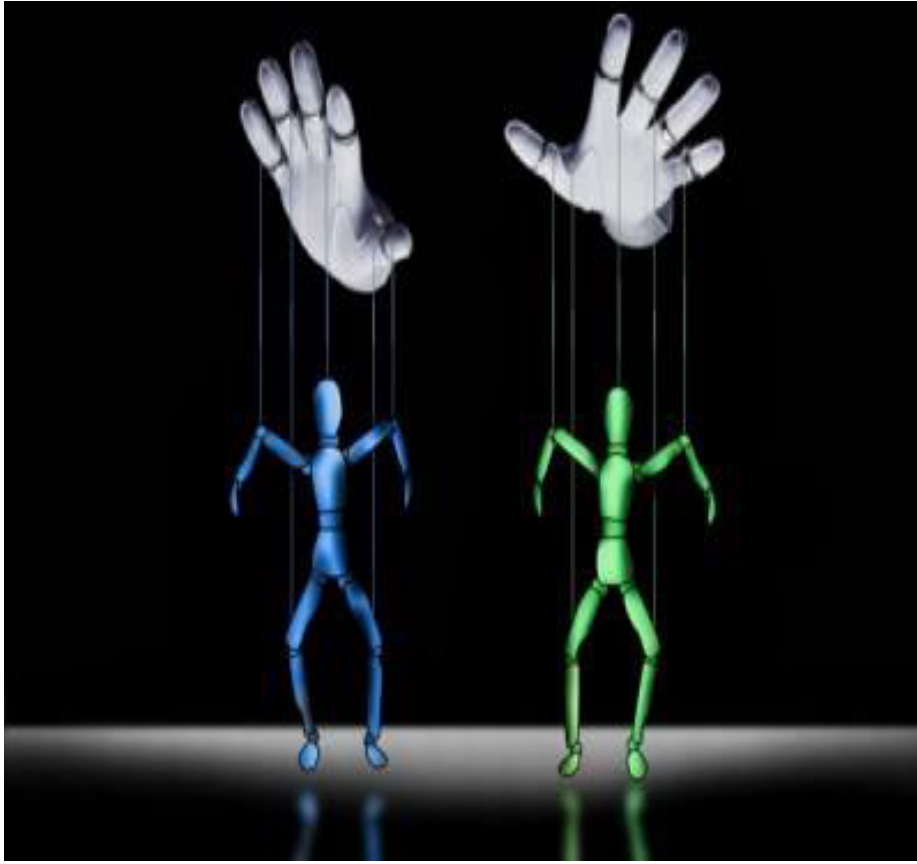
طارق شخاترة



بأتي فيك يا وطني مواطن  
شعور من استبدد ولا أهادن  
بمن يلقي الكلام على العواهن  
بدا وطناً ووحداً فيه ساكن  
وحيي تستطيع بأن تراهن  
لماذا الحي يقبع في المدافن  
ولا يقوى على تحريك ساكن  
وأحلم أن أكون كأبي كائن  
عميل للثرى العربي خائن  
أرى كل المصائد والكمائن  
مقصات الحدود له برائن  
ونقتلها هنالك بالضغائن  
أغيبها بمختلف الأماكن  
تردده الشوارع والمدائن  
كلام وحدها تكفي ولكن

معي كل الأدلة والقرائن  
أحس بما تحس ولا أراعي  
وأسمع ما تقول ولا أبالي  
فؤادي في هواك هوى إلى أن  
فيا وطني الكبير على انتمائي  
ولكن السؤال يظل دوماً  
لم العربي يذبح كل يوم  
أنا في حزنك الممتد أغفو  
هناك على الحدود أحس أنني  
إذا سافرت من قطر لقطر  
مضى المحتل مذخوراً وأبقى  
هنا للوحدة الكبرى نغي  
بلاد العرب أوطاني سابقى  
وأشدد موطني وصدى نشيدي  
ولكن بعد لكن ليس عندي

## رسم العدد



انتهى العدد